عبد المطّلب وأيامه (٢)

محمد سليمان

هـذه هـي الحلقة الثانيـة من مقالتنا (**عبـد المطّلب وأيامـه**) المتوفّرة على سـيرته، نبدؤها بسـؤال تُعـدُّ الإجابة عنه هـي الأهم؛ ولعلَّها الأسـاس والمنطلق في انبثـاق أيامه:

هل عَبَدَ الأصنامَ؟

مقدمـة نقـول: في زمـن عبـد المطّلـب قبلـه وبعـده نُصب فيـما يحيـط الكعبـة بيت الله الحـرام ـ الـذي أرادت لـه السـماء أن يكـون بركـةً وطهـراً، وأريـد لـه غـير ذلك مـن قبل الجاهلـين المعانديـن ـ ثلاثمائـة وسـتون صنـماً! ولم يكتفـوا بهـذا، بل راحـوا قبائـل وأُسراً وأفـراداً يجعلونها وكأنَّها تعيش بينهم، تواكبهم في حضـرهم وفي سـفرهم، في عملهم وفي تجارتهـم، في سـلمهم وفي غزواتهـم..، وذلـك حين راحـت كلُّ قبيلة تتخذ لنفسـها صنماً، ومَـن أراد أن يختـصَّ بصنـم لـه فعل ذلك، ومن سـافر واسـتثقل حمل صنمـه الكبير، حمل معـه صنـماً صغـيراً بـدلاً عنـه، أو راح يبحـث عـن حجر مـن هنـا وهنـاك، أو جَمَـعَ تراباً وحلـب شـاته عليه؛ ليتماسـك؛ فيطـوف به، ويتمسـح به، ويدعـو عنده ويتوّسـل..، ولا ضـير عندهـم في تنقلهـم مـن صنـم لآخر ومـن حجر لآخـر، ولا ضـير إن جاعـوا أكلوا ربَّهـم إن صنعـوه ممـا يـؤكل كالتمـر.. فهـم يُحبّـون تعـدد أربابهم وآلهتـم، ويحاربـون من

يدعـو إلى غـير ذلـك، إلى مَـن يدعـو إلى إلـه واحـد لا شريـك لـه، إلى التوحيـد الخالـص المتمثـل بــ: «لا إلـه إلّا الله هو الله الذي لا إله إلاّ هو» أساسـه وأعظم أركانـه، وهو الوارد في آيـات قرآنيّـة كثيرة، تدعـو إلى عبادته وعدم جعـل شريك له؛ منها: ﴿**وَاعْبُـدُوا اللَّهَ وَلَا تُشرِكُوابِهِ شَـيْئًا**﴾.[1]

ولهـذا وقفـوا بقـوّة وشـدّة ضدَّ دعـوة رسـول الله ﷺ بعـد بعثتـه المباركة، التـي نادت بحـصر الأُلوهيـة بـالله وحـده دون غـيره. وبتوحيـد الأُلوهية يتـمُّ توحيـد العبادة..

بعـد أن أثـارت دهشـتهم وعجبهـم واسـتغرابهم، وقامـوا فزعـين ينفضون ثـيابهم، أولاً، فتشـدّدهم وتمردهـم ومقاومتهـم العنيفة ثانياً، وقـد تمثّل هذا بقولهـم: ﴿**وَعَجِبُواْ أَن جَآءَهُـم مُّنذِرٌ مِّنْهُـمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَـاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـهاً وَاحِداً إِنَّ هَـذَا لَـشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾.

الشـيخ الطـبرسي: أي جاءهم رسـول من أنفسـهم مخـوّف من جهة الله تعـالى يحذرهم المعـاصي وينذرهـم النـار. ﴿**وقـال الكافـرون هـذا سـاحر كـذاب**﴾. حـين يزعـم أنـه رسـول الله ﷺ ﴿**أجعـل الآلهـة إلهاً واحـداً**﴾. هذا اسـتفهام إنكار وتعجيـب، وذلك أنَّ النبـيَّ ﷺ أبطـل عبادة مـا كانوا يعبدونه مـن الآلهة مـع الله، ودعاهم إلى عبـادة الله وحده، فتعجبـوا مـن ذلـك، وقالوا: كيـف جعل لنا إلهـاً واحداً بعد ما كنـا نعبد آلهـة، ﴿**إنَّ هذا**﴾. الـذي يقولـه محمد مـن أنَّ الإله واحد ﴿**لـشيء عجاب**﴾. لأمر عجيب مفـرط في العجب ! فأيـن موقع عبـد المطّلب مـن ذلك؟

لقـد كان عبـد المطّلب ومَن هم على شـاكلته ضـدَّ ظاهرة الأصنام والأوثـان وعبادتها، أو التوسـل بهـا وطلـب شـفاعتها. وأعلنـوا تمسّـكهم بالتوحيـد انطلاقـاً مـن الحنيفيـة الإبراهيميّـة المباركـة: ﴿**مِلَّـةَ إِبْرَاهِيـمَ حَنِيفاً وَمَـا كَانَ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ**﴾.

التـي جـاء بها نبـيُّ الله إبراهيـم عليه السلام، والتي تنطلـق من تعاليـم أخلاقية عظيمـة، تدعو

١. سورة النساء: ٣٦.

إلى حسن الخلق والسيرة، وتهدف إلى صفاء النفوس وتنقيتها، مع بقائها ملتزمةً بعبادة الله تعالى وتوحيده، ورفض عبادة ما دونه، وأن يكونوا على اتصال بالدعوة الإبراهيميّة، التي أمرت الجميع باتباعها سواء الذين سبقوا البعثة النبويّة، أم الذين جاؤوا أثناء البعثة وبعدها.. ﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.[1]

وكيف لا يكون كذلك، وعبد المطّلب من أولئك الساجدين، من تلك الأصلاب الطيبة والأرحام المطهرة، التي انبثق منها رسول الله ﷺ على قولٍ نذكره في تفسير الآية الكريمة التالية: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ**﴾. قراءةً فقد قرىء وتقلبك. وإعراباً: عطف على الكاف في يراك، وفي الساجدين حال، وفي بمعنى مع... السمين: قوله: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ**﴾. اعطفٌ على مفعول﴿ **يَراك**﴾. أي: ويرى تَقَلُّبَك. وهذه قراءةُ العامَّةِ. وقرأ جناح بن حبيش بالياء مِنْ تحتُ مضمومةً، وكسر اللامِ ورفعِ الباء جَعَلَه فعلاً، ومضارع قَلَّب بالتشديد، وعَطَفْه على المضارعِ قبلَه، وهو ﴿**يَراك**﴾. أي: الذي يُقَلِّبُك.

وبياناً، ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾... أي ويرى تصرُّفَك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود، أو في أركان الصلاة قائماً وراكعاً وساجداً.وتقلبك في الساجدين إذا صليت في جماعة. و... فهي ذات أقوال وروايات مختلفة، لخّصها ابن الجوزي بثلاثة: أحدها: وتقلُّبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: وتقلُّبك في الركوع والسجود والقيام مع المصلِّين في الجماعة؛ والمعنى: يراك وحدك ويراك في الجماعة، وهذا قول الأكثرين منهم قتادة. والثالث: وتصرُّفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، قاله الحسن.

وما يهمنا منها روايةً وقولاً هو ما يتعلق لا بعبد الله والد النبيّ ﷺ وأُمّه آمنة بنت وهب فقط، بل بآباء النبيّ ﷺ إلى آدم عليه السلام في كونها تصلح أن تكون دليلاً من أدلة

١ . آل عمران : ٩٥ .

على كونهم موحّدين؛ باعتبار كونهم ﴿**السَّاجِدِينَ**﴾. وهو الذي نكتفي بذكره: عن أبي جعفر عليه السلام، قال: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ**﴾. في النبوّة ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾... قال: في أصلاب النبيين. وتقلبك في أصلاب الموحدين من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك نبيًّا عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله صلوات الله عليهما قالا: في أصلاب النبيين نبيّ بعد نبيّ حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام. عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأمّة.

ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيّاً. وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال: في هذه الآية يعني تقلبه من صلب نبيّ إلى صلب نبيّ حتى أخرجه نبيًّا. وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده، والبزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾. قال: من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبيًّا. وتقلُّبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك. وعنه: أنَّ معناه إنه أخرجك من نبيّ إلى نبيّ حين أخرجك نبياً. وعنه: في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم حتى خرجت. وعنه: أراد وتقلبك في أصلاب الأنبياء من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأُمّة. وروي أنَّه صلى الله عليه وآله قال: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات. وقال بعضهم: المراد بالساجدين المؤمنون أي يراك متقلبا في أصلاب وأرحام المؤمنين منذ زمن آدم وحواء الى عبد الله وآمنة.[1]

١. إعراب القرآن وبيانه، الدرويش، سورة الشعراء: ٢١٨-٢١٩؛ الدر المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)، الآيتان؛ وانظر بحار الأنوار للعلامة المجلسي ١٥: ١١٨، الأولى: أنَّ آباء نبينا ما كانوا كفاراً، ويدلّ عليه وجوه: منها: قوله تعالى: الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين...؛ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي؛ تفسير معالم التنزيل، البغوي (ت ٥١٦ هـ)؛ تفسير زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير: الرازي (ت

مع بعض أعلام التفسير:

الشيخ الطوسي:.. وقال قوم من أصحابنا: إنه أراد تقلبه من آدم إلى أبيه عبد الله في ظهور الموحدين، لم يكن فيهم من يسجد لغير الله.

النيسابوري:.. وقد احتج بالآية علماء الشيعة على مذهبهم أنَّ آباء النبيّ ﷺ لا يكونون كفاراً. قالوا: أراد تقلب روحه من ساجد إلى ساجد كما في الحديث المعتمد عليه عندهم: (لم أزل أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات .(وناقشهم أهل السنة في التأويل المذكور وفي صحة الحديث. والأصوب عندي ـ والكلام ما زال للنيسابوري ـ أن لا نشتغل بمنع أمثال هذه الدعوى، ونسرح إلى بقعة الإمكان على أنَّه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول...

الآلوسي:.. وعن ابن جبير أنَّ المراد بهم الأنبياء عليهم السلام، والمعنى ويرى تقلبك كما يتقلب غيرك من الأنبياء عليهم السلام في تبليغ ما أمروا بتبليغه وهو كما ترى، وتفسير الساجدين بالأنبياء رواه جماعة منهم الطبراني والبزار وأبو نعيم عن ابن عباس أيضاً، إلّا أنّه رضي الله تعالى عنه فسّر التقلب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أُمُّه عليه الصلاة والسلام، وجوّز على حمل التقلب على التنقل في الأصلاب أن يراد بالساجدين/ المؤمنون. واستدل بالآية على إيمان أبويه ﷺ كما ذهب إليه كثير من أجلّة أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما رضي الله تعالى عنهما على رغم أنف عليّ القاري وأضرابه بضد ذلك، إلّا أنّي لا أقول بحجّية الآية على هذا المطّلب.[1]

---

٦٠٦ هـ) ؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١ هـ) ؛ تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (ت ٧٢٥ هـ) ؛تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ) ؛ تفسير فتح القدير، الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، وانظر تفسير البرهان في تفسير القرآن ؛ هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧هـ).

١. تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ؛ تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان، القمي النيسابوري (ت٧٢٨هـ) ؛تفسير روح المعاني، الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ) : الآية.

فعلى هذا القول وما فيه من روايات؛ تشير إلى تلك الأصلاب الطيبة، وتلك الأرحام المطهرة، التي شكّلت دائرة طهر وطيب، قدّرت السماء لرسول الله ﷺ أن يتنقل فيها ومن خلالها، وبالتالي لا يمكن أن يكون للكفر والشرك أثر فيها أبداً، فجاء هذا المدح القرآني الخالص من كلّ شائبة لهذه الدائرة المتمثلة بالساجدين، ولا يمكن أن يخصّ التنزيل العزيز أولئك الساجدين لغير الله تعالى من مشرك وكافر بهذا المدح المبارك!

ولا غرابة في ذلك وهو ﷺ أتمّ مصداق لدعوة جدّه إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾.[1]

الشيخ الطبرسي: أي اصرفني وإياهم عن عبادة الأصنام... أي والطف لي ولبنيَّ لطفاً نتجنب به عن عبادة الأصنام، ودعاء الأنبياء لا يكون إلّا مستجاباً، فعلى هذا يكون سؤاله ذلك مخصوصاً بمن علم الله من حاله أن يكون مؤمناً لا يعبد إلّا الله، ويكون الله سبحانه قد أذن له في الدعاء لهم واستجاب دعاءه فيهم. «فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته» كما في رواية عن مجاهد.[2]

فقد كان عبد المطّلب، وبقدر تشدّده بالحنفية وتبعيته لها، رافضاً للأصنام والأوثان وعبادتها والتوسل بها أو طلب شفاعتها، فلقد عرف بعبادته لله تعالى، وما خلوته في غار حراء إلّا دليلاً على توجهه الصادق نحو عبادة الأحد الصمد، والتفكر في ملكوته وصفاته وأفعاله تعالى. فكان بحقٍّ واحداً من مصاديق عديدة لوجه من وجوه تفسير: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾. ولتلك الأصلاب وكذا الأرحام، التي وصفها الحديث النبوي الشريف بالطاهرة: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات».

---

١. سورة إبراهيم: ٣٥.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، سورة إبراهيم: ٣٥.

مما يعني أنَّ سلسلة آبائه وأمهاته ﷺ حتى آدم وحواء لم يكن فيهم كافر أو مشرك؛ لأنَّ هذا خلاف الطهر، فمن يتصف بالكفر لا يوصف بالطهر وبأنه طاهر، فآباؤه ﷺ ومنهم جدّه عبد المطلب كانوا على ملّة جدّهم إبراهيم عليه السلام حنفاء، مما يعني أنَّ هناك أُناساً عبر القرون ـ وإن انحرف الكثيرون غيرهم عن التوحيد وعن ملّة إبراهيم عليه السلام ـ بقوا على توحيدهم واتباعهم لملّة إبراهيم عليه السلام، إضافةً إلى أخبار وأقوال المؤرخين، التي تظافرت على أنَّ بني هاشم آباء النبيِّ ﷺ كانوا لا يضاهيهم أحدٌ في أقدارهم وخيريتهم وأشرفيتهم وأفضليتهم على غيرهم، فمثلاً يقول اليعقوبي: «عبد المطّلب قد أعطاه الله من الشرف ما لم يعط أحداً». وبالتالي فإنَّ حجّة الله تعالى باقية على الناس ومستمرة بوجود هؤلاء وإن كانوا قلّة. وقد تجسّد موقف هؤلاء الحنفاء على قلّتهم في رفضهم الشديد والثابت لأناس كثر في مكّة المكرَّمة جمعهم ما كانوا يعبدون من دون الله عزَّوجلَّ، يعبدون من الأصنام ما يشتهون، ومن الأوثان ما يُحبون، فكانوا من الجاهلين، وهم بهذا ابتعدوا عن ملّة نبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام، وخالفوها.. هذه الملّة التي أمرت السماء حتى نبيَّنا محمداً ﷺ باتباعها: ﴿**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.[1]

لقد تجلّت مواقف أولئك الحنفاء العرب في بحثهم عن الدين الحقّ، وتطلعهم لظهوره، وترقبهم لنبيّه الخاتم صلوات الله عليه..!

كما أنَّ الأحناف ظلوا يمارسون عباتهم بعيداً عن قومهم في كهوف خصوصاً في شهر رمضان، فيما كان عبد المطّلب يأوي إلى غار حراء.. فهو لا فقط كان واحداً منهم، بل كان سيدهم في هذا الأمر، يسمعون منه ويطيعون... ولعلَّ أجمل مناقبه هو أنَّه كان موحداً، لم يسجد لصنم، ولم يعبد إلّا ربَّ البيت العتيق، وهكذا عرفت سيرته بين قومه، وظلَّ طيلة حياته على دين إبراهيم عليه السلام وشريعته، أو على ما بقي منه كما

١. سورة النحل: ١٢٣.

هـو حـال غير عبـد المطّلـب مـن الأحناف، فهـو يديـن بالملّـة الحنيفيـة الإبراهيمية نسـبة الى جـدّه إبراهيـم الخليـل، الذي كان كـما وصفه القـرآن الكريـم: ﴿**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًـا وَمَـا كَانَ مِـنَ الْمُـشْرِكِينَ**﴾. وإن قيل فيه غير ذلـك، ومنه: أنَّ عبـد المطّلب ومَن عـلى شـاكلته معـذورون على الراجـح؛ لقولـه تعـالى: ﴿**وَمَا كُنَّـا مُعَذِّبِـينَ حَـتَّى نَبْعَثَ رَسُـولاً**﴾.[1] لكونهـم مـن أهـل الفـترة، وهـو مصطلـح اسـتخلص مـن الآيـة: ﴿**يَـا أَهْلَ الْكِتَـابِ قَـدْ جَآءَكُمْ رَسُولُـنَا يُبَيِّنُ لَكُـمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُـلِ أن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِـن بَشِـيرٍ وَلاَ نَذِيـرٍ فَقَـدْ جَاءَكُـمْ بَشِـيرٌ وَنَذِيـرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾.[2]

يـراد بـه ذلـك الزمن الذي لم يُرسـل فيـه نبيٌّ ولا رسـولٌ، ولم ينـزل فيه كتـاب. وغالباً هـو وقـت يقع بـين بعثة نبـيّ وبعثة نبـي آخر.

الشـيخ الطـبرسي: الفـترة فعلـة مـن فتر عـن عمله يفـتر فتـوراً إذا سـكن فيـه وفترته عنـه، والفـترة انقطـاع ما بـين النبيين عنـد جميـع المفسرين...﴿**رَسُـولُنَا**﴾. يعنـي محمداًﷺ ﴿**يُبَـيِّنُ لَكُـمْ**﴾. أي يوضـح لكـم أعلام الديـن، وفيه دلالة عـلى أنه سـبحانه اختصّه من العلـم بـما ليس مع غـيره ﴿**عَلَىٰ فَـتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُـلِ**﴾. أي عـلى انقطاع من الرسـل ودروس مـن الديـن والكتـب. وفيه دلالة عـلى أنَّ زمان الفـترة لم يكن فيـه نبيّ، وكانـت الفترة بين عيسـى ومحمـدعليهما السلام وكانـت النبوة متصلـة قبل ذلـك في بني إسرائيـل.. واختلفـوا في مُدّة الفترة بينهما، فقيل: سـتمائة سـنة.. وقيل: خمسـمائة سـنة وسـتون.. وقيـل: أربعمائة وبضع وسـتون سـنة.. وقيل: خمسـمائة وشيء.. وقيل: كان بين ميلاد عيسـى ومحمدعليهما السلام خمسـمائة وتسع وسـتون سنة.[3]

---

١. سورة الإسراء: ١٥.

٢. سورة المائدة: ١٩.

٣. انظـر تفسـير مجمـع البيان للشـيخ الطـبرسي)ت ٥٤٨ هـ)؛ وتفسـير مفاتيح الغيب، التفسـير الكبير، الـرازي (ت ٦٠٦ هـ) : الآيـة؛ وغيرهما من التفاسـير في المـراد من الفترة، الآية: ١٥ الإسراء؛ تفسـير أضـواء البيان في تفسـير القرآن، الشـنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ).

ببركة ذلك النور !

وهنا لابدَّ لنا من ذكر ما راح الشهرستاني(ت ٥٤٨ هـ) يتحدّث عنه في كتابه الملل والنحل، حين يقول: اعلم أنَّ العرب في الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم: أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان، ويعدونه نوعاً شريفاً، خصوصاً معرفة أنساب أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله، والاطلاع على ذلك النور الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعيل عليه السلام وتواصله في ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور في أسارير عبد المطلب؛ سيد الوادي شيبة الحمد، وسجد له الفيل الأعظم، وعليه قصة أصحاب الفيل وببركة ذلك النور دفع الله تعالى شرَّ أبرهة، وأرسل عليهم طيراً أبابيل. وببركة ذلك النور رأى تلك الرؤيا في تعريف موضع زمزم، ووجدان الغزالة والسيوف، التي دفنتها جرهم. وببركة ذلك النور ألهم عبد المطّلب النذر، الذي نذر في ذبح العاشر من أولاده، وبه افتخر النبيّ صلى الله عليه وآله حين قال: «أنا ابن الذبيحين» أراد بالذبيح الأول إسماعيل عليه السلام، وهو أول من انحدر إليه النور فاختفى، وبالذبيح الثاني عبد الله بن عبدالمطّلب، وهو آخر من انحدر إليه النور، فظهر كلّ الظهور. وببركة ذلك النور كان عبد المطّلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي. ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور. وببركة ذلك النور كان قد سلم إليه النظر في حكومات العرب، والحكم بين المتخاصمين، فكان يوضع له وسادة عند الملتزم، فيستند إلى الكعبة، وينظر في حكومات القوم. وببركة ذلك النور قال لأبرهة: «إنَّ لهذا البيت ربًّا يحفظه ويذب عنه». وفيه قال وقد صعد إلى جبل أبي قبيس:

لا هُمَّ إنَّ المرء يمـ ... ـنع حلّه، فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم، ومحالهم غدراً محالك، إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمر ما بدا لك، وببركة ذلك النور، كان يقول في وصاياه: إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال: والله إنّ

وراء هـذه الـدار داراً يجـزي فيها المحسـن بإحسـانه، ويعاقب فيها المسـيء بإسـاءته. ومما يـدلّ عـلى إثباته المبـدأ والمعـاد أنه كان يـضرب بالقداح عـلى ابنه عبـد الله، ويقول:

يا رب أنت الملك المحمود

وأنت ربي المبدئ والمعيد

من عندك الطارف والتليد.

ويواصـل الشهرسـتاني كلامـه عـن عبد المطلـب قائـلاً: ومما يـدلّ على معرفتـه بحال الرسـالة وشرف النبـوة أنَّ أهـل مكة لما أصابهم ذلك الجدب العظيم، وأمسـك السـحاب عنهـم سـنتين، أمـر أبا طالـب ابنـه أن يحضر المصطفـى محمـداً ﷺ، فأحضره وهـو رضيع في قـماط، فوضعـه على يديه، واسـتقبل الكعبـة ورماه إلى السـماء، وقال: يـا رب بحقّ هذا الغـلام! ورمـاه ثانيـاً وثالثـاً. وكان يقول: بحقّ هـذا الغلام اسـقنا غيثاً مغيثاً دائـماً هطلاً! فلـم يلبـث سـاعة أن طبق السـحاب وجه السـماء وأمطر، حتـى خافوا على المسـجد.

وأنشد أبو طالب ذلك الشعر اللامي الذي منه:

وأبيض يستسـقي الغـمام بوجهه ثـمال اليتامـى عصمـة للأرامل.[1]

ومـن ذكـر ما جاء عـن الـوراق (ت٢٤٧ هـ) فعن الشـريف المرتضـى (ت٤٣٦ هـ) حكى أبو عيسـى الـوراق في كتابه (كتاب المقـالات): أنَّ العرب صنوف شـتى، صنف... ومنهـم صنف... ومـمـن كان يقرُّ بالخالق وابتـداء الخلق والإعادة والثـواب والعقاب، عبد المطّلـب بـن هاشـم بن عبـد مناف، وزيـد بن عمرو بـن نفيل، وقـس بن سـاعدة الأيادي النـزاري. وكان عبـد المطّلـب يـوصي ولـده بـترك الظلـم، ويأمرهـم بمـكارم الأخلاق، وينهى عـن... وكان بدئياً.

يقـول عبـد المطّلـب في وصايـاه: إنـه لم يخـرج مـن الدنيـا ظلـوم حتـى ينتقـم الله منـه

١. انظـر كتـاب الملـل والنحـل للشهرسـتاني) ت ٥٤٨ هــ) ٣: ٨٣،٨٥ الفصـل الثـاني: المحصلـة مـن العـرب، ١: علومهـم. وسـنذكر هـذا وغـيره مـن أخبـار في الاستسـقاء كيـوم مـن أيـام عبـد المطّلب.

ويصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم ومات حتف أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبدالمطلب ذلك، ففكر ثم قال: فوالله، إنَّ وراء هذه الدار داراً، يجزى المحسن بإحسانه، والمسئ يعاقب على إساءته. ومما دلَّ على إقراره بالإعادة قوله وهو يضرب بالقداح على عبد الله ابنه أبي النبيّ صلى الله عليه وآله وعلى الإبل: يا رب أنت الملك المحمود * وأنت ربّي المبدئ المعيد * والعبد عبدك الطارف والتليد. في أرجوزة طويلة. وقد زعم بعض الناس أنَّ عبد المطّلب لم يعبد صنماً، وأنه كان موحداً «حنيفاً» على ملّة إبراهيم، وكذلك كان أبو النبيّ صلى الله عليه وآله. وبالتالي: فلم يكن عبدالمطّلب ولا أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله الآخرين يعبدون الأصنام. كان عبد المطّلب يعتقد بوحدانية الله تعالى. ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد الله... ولم يعبد الأصنام. ورفض عبادة الأصنام و وحد الله عزَّوجلَّ. وهو القائل: أنا على دين أبي إبراهيم. حتى عرف واشتهر عند الجميع رفضه لعبادة الاصنام، وثقافتها السائدة في عصره... وينقل الشيخ الصدوق أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال للإمام عليّ عليه السلام: لم يكن عبدالمطّلب يلعب القمار، ولم يعبد الأصنام، وكان يقول: أنا على دين أبي إبراهيم. وعن الأصبغ بن نباتة قال: سمعتُ أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: والله ما عبد أبي، ولا جدّي عبد المطّلب، ولا هاشم، ولا عبد مناف صنماً قطّ. قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال عليه السلام: كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم عليه السلام متمسّكين به.

ثمَّ إن كان عبدالمطّلب كافراً، فهل يصحُّ لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يفتخر به، ويرفع بذلك قدره وشأنه وذكره، وذلك في قوله صلى الله عليه وآله: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب». فعن أبي إسحاق أنَه قال: سأل رجل البراء رضي الله عنه، فقال: يا أبا عمارة أوليتم يوم حنين؟ !قال البراء، وأنا أسمع: أما رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يول يومئذ، كان أبوسفيان بن الحارث آخذاً بعنان بغلته، فلما غشيه المشركون نزل، فجعل يقول: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب». قال: فما رئي من الناس يومئذ أشدَّ منه... وأما نسبته إلى عبد المطّلب دون أبيه عبد الله، فكأنها لشهرة عبد المطّلب بين الناس لما رزق من

نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شاباً، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطّلب، كما قال ضمام بن ثعلبة لما قدم: أيكم ابن عبدالمطّلب؟ وقيل: لأنّه كان اشتهر بين الناس أنّه يخرج من ذرية عبد المطّلب رجل يدعو إلى الله، ويهدي الله الخلق على يديه، ويكون خاتم الأنبياء، فانتسب إليه؛ ليتذكر ذلك من كان يعرفه، وقد اشتهر ذلك بينهم. وذكره سيف بن ذي يزن قديماً لعبد المطّلب قبل أن يتزوج عبد الله آمنة. وأراد النبيُّ ﷺ تنبيه أصحابه بأنه لا بدَّ من ظهوره، وأنَّ العاقبة له؛ لتقوى قلوبهم إذا عرفوا أنّه ثابت غير منهزم. وأما قوله: «لا كذب» ففيه إشارة إلى أنَّ صفة النبوّة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبيُّ، والنبيُّ لا يكذب، فلستُ بكاذبٍ فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن بأنَّ الذي وعدني الله به من النصر حقٌّ، فلا يجوز عليَّ الفرار. وقيل: معنى قوله: «لا كذب» أي أنا النبيُّ حقّاً، لا كذب في ذلك. هذا وقد ذكروا أنّه كان يخلو مع نفسه في غار حراء، يتعبّد، وقد يكون يفكّر فيما عليه قومه وأحوالهم.. وقد تكون شدّة التزام قومه بعبادة الأصنام وقوّة تمسّكهم بها، وتعصبهم المذموم في هذا، فرضت عليه الصمت إزاء ما يعبدون، وبالتالي لم يتمكن من تغيير ما هم عليه رغم عدم رضاه، وعدم قبوله بما هم عليه. ورغم أنَّ قريشاً كانت تجلّه، وتقول: عبد المطّلب إبراهيم الثاني. ويبدو أنَّه لقب بهذا لقوّة التزامه بالحنيفية الإبراهيميّة. وأنَّها كانت إذا أصابها قحط شديد، تأخذ بيدي عبدالمطّلب، فتخرج به إلى جبل ثبير، تستسقي به المطر، فيسقون. ورغم أنَّهم يروون أنه كان ـ والكلام للدكتور جواد علي ـ مفزع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور، وأنه كان من حلماء قريش وحكمائها، وممن حرم الخمر على نفسه، وهو أول من تحنث بغار حراء. والتحنث التعبد لليالي ذوات العدد. وكان إذا دخل شهر رمضان، صعده وأطعم المساكين، وكان صعوده للتخلي من الناس، ليتفكر في جلال الله وعظمته. وكان يعظم الظلم بمكة، ويكثر للطواف بالبيت... ولهذا كان عبد المطّلب يستحق وبجدارة وساماً مباركاً كما في رواية نسبت إلى النبيِّ ﷺ أنه قال: إنَّ الله يحشر جدّي عبد المطّلب بسيماء الأنبياء

وهيبة الملـوك! وكذا.

عـن زرارة بـن أعـين، عـن أبي عبـد الله عليه السلام قـال: يحشـر عبـد المطّلب يـوم القيامة أُمّة واحـدة، عليـه سـيماء الأنبيـاء وهيبـة الملوك... عـن مقـرن، عن أبي عبـد الله عليه السلام قـال: إنَّ عبـد المطّلـب أول من قـال بالبداء، يبعث يـوم القيامة أمّة وحـده، عليه بهاء الملوك وسـيماء الأنبياء.[1]

سننه ومكارم الأخلاق:

وعبـد المطّلـب عـلى حالتـه هـذه، قـد اتفقت الأخبـار بـأنَّ سـنناً كثـيرةً انبثقـت منه، وسـنَّها، وأقرّتهـا شريعـة الإسـلام بعـد البعثـة النبويّـة المباركـة، منهـا: مـا عـن الإمـام الصـادق عليه السلام أنَّ النبـيَّ صلى الله عليه وآله قـال للإمـام عـليٍّ عليه السلام: «لقد أجرى عبـد المطّلب خمس سـنن في الجاهليـة، قـد اقرَّها الله في الإسـلام: فقد حـرّم زواج الابن مـن زوجة أبيه، وجـاء القرآن بمثـل هـذا: ﴿**وَلا تَنْكِحُـوا مـا نَكَـحَ آباؤُكُـمْ مِنَ النِّسـاءِ**﴾.[2]

لّمـا حفـر بئر زمزم ووجد فيـه المجوهرات، التـي رماها آخر حكّام جرهـم وهي الهدايا المقدمـة للكعبـة، أخذها له ودفع خمسـها فقـط، والله تعالى يقـول: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّمـا غَنِمْتُمْ مِـنْ شَيءٍ فَـأَنَّ لِلهِ خُمُسَـهُ**﴾.[3] لمـا حفـر زمزم سـّماه سـقاية الحـاج، فأنـزل الله عزَّوجلَّ: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِـقايَةَ الْحاجِّ وعِمارَةَ الْـمَسْجِدِ الْـحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَومِ الْآخِرِ**﴾.[4]

---

١. انظـر رسـائل الشريف المرتضـى ٣: ٢٢٣، ٢٢٤؛ كـمال الدين وتمام النعمة للشـيخ الصدوق: ١٧٤ البـاب ١٢ الرقـم ٣٢؛ الغديـر للشـيخ الأمينـي: ٧ ٣٨٧ صحيـح البخـاري، كتاب الجهاد والسـير، حديـث رقـم: ٣٠٤٢؛ وانظـر فتـح البـاري شرح صحيـح البخـاري، أحمـد بـن عـلي بـن حجـر العسـقلاني ٧: ٦٢٦ رقم ٤٠٦١؛ تاريخ اليعقوبي: ١٣٦٣؛ كتاب الكافي للشـيخ الكليني ١: ٤٤٧؛ بحـار الأنـوار، العلامة المجلـسي ١٥: ١٥٧.

٢. سورة النساء: ٢٢.

٣. سورة الانفال: ٤١.

٤. سورة التوبة: ١٩.

جعل عبد المطّلب دية المقتول مئة ناقة، وكذلك جعلها الإسلام.

جعل أشواط الطواف سبعة ، ومن قبله لم تكن محدّدة بعدد :

أنَّه حرم الخمر على نفسه، وتبعه في هذا ابنُه أبو طالب. ومنها الوفاء بالنذر، ومنها منع نكاح المحارم وتحريمه للزنا. وكان هناك طواف للعراة من النساء ليلاً، وللرجال نهاراً، والذي انتشر في ذلك الزمن. إلّا أنّ عبد المطّلب منع التعري في الطواف بالبيت الحرام. كما روي أنه وضع سنناً جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان. وذكر أنَه كان أول من سنّ دية النفس مئة من الإبل، وكانت الدية قبل ذلك عشراً من الإبل، فجرت في قريش والعرب مئة من الإبل. وأقرّها رسول الله على ما كانت عليه.

واليعقوبي في تاريخهِ بعد أن ذكر أنَّ: عبد المطّلب كان يعتقد بوحدانية الله تعالى،... ورفض عبادة الأصنام، ووحد الله عزَّوجلَّ، ووفى بالنذر يقول: «وسنَّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنة من رسول الله بها وهي: الوفاء بالنذور، ومائة من الإبل في الدية، وألّا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموؤدة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزناء، والحد عليه، والقرعة، وألّا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وألّا ينفقوا إذا حجّوا إلّا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات.. وذكر أنه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور. وكان يقول: «لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وإنَّ وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته![1] ولا يستقسم بالأزلام،

---

١. مجمع البيان للشيخ الطبرسي : الآية ؛ وهو ما ذكره اليعقوبي في تاريخه ١ : ٣٦٣٢ : ١٠ -١١ ، وعدد من المؤرخين ؛ وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٥ : ٥٩ . وحنفاء ؛ ورسائل المرتضى للشريف المرتضى ٣ : ٢٢٤ ؛ وانظر المقالة (حنيفاً ـ حنفاء) في العدد ٥٠ من هذه المجلة، وقد وردت (حنيفاً ، حنفاء) في اثنتي عشرة آية...؛ بلوغ الإرب في معرفة أحوال

ولا يـأكل مـا ذبح عـلى النصـب. وإذا لم تصب الظلـوم في الدنيـا عقوبة، فهي معـدة له في الآخرة».

أيام عبد المطّلب :

مـن هـذه العقيـدة الثابتة؛ عقيدة التوحيـد، ومن يقينه وصـدق اتباعه: ﴿**مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًـا وَمَـا كَانَ مِـنَ الْمُـشْرِكِينَ**﴾.[1] انبثقـت مواقفـه، فكانـت أياماً أكّدهـا التاريخ، شـخصت بـه ولـه دون غـيره، عظم فيهـا قـدرُه، وعلا فيهـا شـأنُه، وعُدت مـن كراماته، راحـت تنير لنا مسـيرته في حياتـه، وخلّدته بعد مماتـه، فبعد أن ولي عبد المطّلب بن هاشـم ـ والـكلام لابـن إسـحاق ـ السـقاية والرفـادة بعـد عمّـه المطلـب، فأقامها للنـاس، وأقام لقومـه مـا كان آبـاؤه يقيمـون قبلـه لقومهـم مـن أمرهـم، وشرف في قومـه شرفـاً لم يبلغه أحـدٌ مـن آبائـه، وأحبّـه قومـه، وعظـم خطـره فيهم. لقد شـهد لـه التاريـخ بأيـام كانت خاصـةً بـه، فمن أيامه الكـبرى، هناك يومـان كان مردودهما للكعبة وللبيـت الحرام ومكة المكرمـة ومـا حولها، وهمـا: يوم زمـزم. ويـوم الفيل.

وقـد بدأنـا بيـوم الفيل، وجعلنـاه اليـوم الأول من أيام عبـد المطّلـب في مقالتنا هذه، لأنَّـه يُعـدُّ الأخطـر في حياته وفي الجزيـرة العربيـة، يُقابله فيـه أبرهة الأشرم بـن الصباح الحبـشي، وهـو الـذي يكنـى بأبـي يكسـوم بالسـين المهملـة، وأبرهـة معنـاه بالحبشـة الأبيـض الوجـه؛ عـن الواقـدي: أبرهـة جـدُّ النجـاشي الـذي كان في زمن الرسـول ﷺ وهـو يقـود حملته العسـكرية الكـبرى سـنة ٥٧٠ أو ٥٧١م. وقيل: ما بـين ٥٦٨ و ٥٦٩

العـرب ٢ : ٢٢٥ ؛ كتـاب الخصـال للشـيخ الصـدوق ١ : ٤٥٥ ، ٢ : ٤٥٥ ؛ الاسـتيعاب في معرفـة الأصحـاب لابـن عبد الـبر ١ : ٢٧ ؛ الدر المنثور في التفسـير بالمأثور للسـيوطي، سـورة إبراهيم : ٣٥ ؛ بحـار الأنـوار للعلامـة المجلسـي ١٥ : ١٢٨ ، ٩٣ : ١٩٠ عن كتاب الخصال للشـيخ الصدوق ١ : ١٥٠ ، ومثلـه في: ٢٩ و٣٠؛ السـيرة النبويّـة لابن هشـام ١ : ٩٢.

١ . سورة النحل : ١٢٣ .

م . وقد تكون الأُولى في تاريخ الكعبة المباركة. انطلاقاً من كونه ملك بلاد اليمن، أو كان والياً عليها من قبل ملك الحبشة النصراني، لا فقط لتخريب الكعبة بناءً، بل لإنهاء فعلها وتأثيرها ودورها في جلب الحجّاج والمعتمرين، واستبدالها بكعبته المزعومة في صنعاء القُليس.

القُليس:

تلك التي كانت في فترة الاحتلال الحبشي لليمن في القرن السادس الميلادي، تقع في الحي الشرقي من مدينة صنعاء القديمة من بلاد اليمن، وتحديداً بالقرب من السوق العثماني المعروف بـ:«سوق الملح». ويومها كانت في مكان معبد حميري (نسبة إلى دولة حمير القديمة). أتت تسميتها من اللغة الحبشية من كلمة قليص بمعنى المعبد، أو هي باللغة الحميرية المعبد أو الكنيسة. وأطلق عليها أبرهة الحبشي الأشرم وكان نصرانيًّا اسم الكعبة، بعد أن شيّدها بارتفاع ثلاثين متراً وبعشرين متراً عرضاً في أحسن هيئة وأجمل عمارة. وتذكر روايات تاريخية أنَّها كانت بطول ٦٠ ذراعاً إلى السماء، ويصعد إليها بدرج من رخام، وكانت حجارتها مثلثة الشكل متداخلة بعضها ببعض، ملونة بالأخضر والأبيض والأصفر من الذهب والفضة والأحجار الثمينة،... ويرى المؤرخون أنها تعدُّ من الروائع التاريخية التي تفنن فيها الإنسان، ووصفوها بأنها كانت تتميز بتصميم هندسي فريد، فهي تضمُّ فناءً واسعاً محاطاً بفضاء فسيح للتنزه، وأنشئ مدخل الكنيسة من الجانب الغربي وطليت أبوابها بالذهب والفضة، وكان عقدها من الداخل يرتكز على أعمدة من الخشب الثمين المزين بالرسوم وبمسامير من الذهب والفضة، وكانت لها قبة بقطر يبلغ حوالي ٢٠ متراً، وفي مركز القبّة لوحة من الرخام البراق تسمح بمرور الضوء، وكان البلاط المستخدم من المرمر الملون، وأمام الهياكل والمذابح المقدسة أبواب مموهة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة.

هذا ما حكي عن المؤرخ اليمني والباحث في التاريخ الإسلامي علي بن جار الله

بـن الذيب. صحيفـة العرب: كعبـة أبرهة الحبشي.. والجزيـرة: القليـس في الوقت الحالي. إضافـةً لما قاله الدكتور علي سـيف أسـتاذ التاريخ في جامعة صنعاء: عنـد دخول الأحباش إلى اليمـن سـنة ٥٢٥ بعـد الميـلاد، اتخـذوا مـن صنعـاء عاصمـة لهم وقامـوا ببناء كنيسـة القليـس. حينذاك، أرسـل الامبراطور البيزنطـي عمالاً إغريقاً محمّلين بالفسيفسـاء والمرمر لاسـتخدامها في تشـييد القليـس؛ ولتكـون لاحقـاً محطةً للمسـيحيين في جزيـرة العرب. وكان مـن أهـمّ أسـباب قيـام كنيسـة القليـس السـعي إلى اختطـاف الأضواء مـن الكعبة المشرفـة! والدكتـور محمد العروسي، أسـتاذ الآثار والعـمارة الإسـلامية في جامعة صنعاء، لخّـص قصـة القليـس: كانت الحبشـة مركزاً لنشـر الديانـة المسـيحية في القـرن الأفريقي والشـرق الأوسـط. طُرحت فكرة بناء كنيسـة القليس على الامبراطـور الروماني وكانت الفكـرة أن يتـم تشـييد كاتدرائية لا مثيل لها تسـمى كاتدرائيـة صنعاء، والكاتدرائية اسـم يطلـق عـلى أكبر الكنائـس الدينيـة، وأن يتم بناؤهـا بفخامة كبـيرة وبعدها يُصـار إلى هدم الكعبـة وتوجيـه الناس في اليمـن للحج في غرقـة القليس.

ولهـذا ذكـر ابـن إسـحاق، كـما في تفسـير الطـبري، أنَّهـا: لم يُـر مثلهـا في زمانها بشـيء مـن الأرض، وكتـب إلى النجـاشي ملـك الحبشـة: إنـي قـد بنيتُ لك كنيسـة لم يُبـن مثلها لملـك كان قبلـك...! لقـد أنشـأها إرضـاءً لمليكـه، وحتـى يصرف إليهـا حـجّ العرب كما صرّح هـو بـه. وبغضـاً للكعبة في مكة وحسـداً لأهلها ولكثـرة زوّارها، وما تسـميتها من قبلـه بالكعبـة؛ إلّا لتحقيـق رغبتـه تلـك، وليصرف أنظـار العـرب عن كعبتهـم، ومحاولة منـه لاجتثـاث، لا فقـط أحجارهـا وبنائهـا، بـل ذكرهـا مـن وجدانهـم، وإخراجهـا من تاريخهـم...، وبالتـالي يألفـون زيـارة كنيسـته والتفاعـل معهـا بمـرور السـنين، ونسـيان كعبتهـم الإبراهيميـة المباركـة!... وسـيأتي مـا آلـت إليه كنيسـته هذه.[1]

١. انظـر موقـع رصيف ٢٢: القليس: الكنيسـة التي شُـيّدت في صنعاء للحلول مـكان الكعبة. مقالات: تاريـخ كنيسـة القليـس. مـع التنبيـه إلى أنَّ الـكلام عن هـذه الكنيسـة، قد لا يخلـو من مبالغـات، بل وخرافـات وامتـزاج الحقائق بالشـائعات خاصـةً فيما يـدور في المجالس...

نقف عند يوم عبد المطّلب هذا تأريخيًّا، وروائيًّا، ثمَّ قرآنيًّا:

فتأريخيًّا؛ شهد ذلك اليوم حادثاً خطيراً كما حملته الرواية التأريخية وأخبارها، التي توفّرت عليها مصادر التأريخ والسير والتفسير والرواية مطوّلةً ومختصرةً، كاد أن يُنهي الكعبة، لولا إرادة السماء، التي حالت بين أبرهة الأشرم وبين ما يريد، فمنعت وقوعه، وقضت أن يكون بما أصاب أبرهة المعتدي على بيت الله الحرام من هزيمة عظيمة نكراء عبرةً لمن هم على شاكلته من الظلمة والمعتدين، ويوم عظة للمظلومين والمتجاوَز عليهم، وأن يكون يوماً مباركاً بنصر الله عزَّوجلَّ صيانةً للكعبة على مَن أرادوا كيداً لها، فإذا بهم هم المكيدون، حين تحوّل كيدهم في نحورهم، ومضرّته سرعان ما عادت إليهم وعليهم.

بل ويُعدُّ عاماً مباركاً زادته بركةً ولادةُ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه، ففي قولٍ: واقعة الفيل كانت تقدمة قدمها الله تعالى لنبيّه محمد صلى الله عليه وآله وبيته في الشهر المحرم قبل مولده صلى الله عليه وآله بخمسين أو بخمسة وخمسين يوماً.

وفي قولٍ: كان أمر الفيل في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه أكثر العلماء. وقيل: كان أمر الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة عن الكلبي. وقيل: كان قبل مولده بأربعين سنة عن مقاتل. والصحيح الأول كما يذهب إليه الشيخ الطبرسي، وكذا القرطبي، بعد أن يذكر قول مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وآله بأربعين سنة. وقول الكلبي وعُبيد بن عمير: كان قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة. يقول: والصحيح ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «ولدت عام الفيل». وروي عنه أنه قال: «يوم الفيل». حكاه الماوردِيّ في التفسير له. وقال في كتاب أعلام النبوّة: ولِد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيل بخمسين يوماً. ويبقى القول: إنَّ عام الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وآله بأربعين سنة أو بثلاث وعشرين سنة. قولاً ضعيفاً..

وعـن الشـيخ الكلينـي: ولدالنبـيّ ﷺ لاثنتـي عشـر (عشـرة) ليلة مضت من شـهر ربيـع الأول في عـام الفيـل يـوم الجمعـة مـع الـزوال، وروي أيضاً عنـد طلـوع الفجر قبل أن يبعث بأربعـين سـنة، وهـو قـول موافق لمـا ذهب إليـه غير الشـيعة، إلّا في كونهـم نصّوا عـلى يـوم الاثنـين، فيـما الشـيخ وكذا الشـيخ الطـبرسي نصَّا عـلى يـوم الجمعة. ومـا ذكره الشـيخ الكليني مخالف لما عليه مشـهور الشـيعة وبعض من غيرهم أنه ﷺ ولد في السـابع عـشر من شـهر ربيـع الأول من عـام الفيل.

وقفة مع الزهري:

وفي خـبر أنّـه كان عبـد المطّلـب غلاماً شـابًّا حـين قابل أبرهـة، وأنَّ حفر زمـزم ـ وهو اليـوم الثـاني لعبـد المطّلـب كـما يأتينـا في مقالتنـا هـذه ـ وقـع بعد نـصر الله عزَّوجـلَّ على أبرهـة، فقـد جـاء عـن الأزرقـي أنَّ الزهري قـال: أول ما ذكر مـن عبد المطّلب بن هاشـم جـدّ رسـول الله ﷺ أنَّ قريشـاً خرجـت فـارّةً مـن أصحـاب الفيـل، وهـو غـلام شـابٌّ، فقـال: والله لا أخـرج من حـرم الله أبتغي العزَّ في غـيره! فجلس عند البيـت، وأجلت عنه قريـش، فقال: لَاهُمَّ إِنَّ الْـمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَـهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ * لَا يَغْلِبَـنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَـدْوًا مِحَالَـكْ، فَلَمْ يَـزَلْ ثَابِتًا فِي الْحَرَمِ حَتَّـى أَهْلَكَ اللهُ الْفِيـلَ وَأَصْحَابَـهُ، فَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَقَـدْ عَظُـمَ فِيهَا لِصَـبْرِهِ وَتَعْظِيمِهِ مَحَـارِمَ الله عَزَّوَجَلَّ، فَبَيْنَمَا هُـوَ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ وُلِـدَ لَهُ أَكْبَرُ بَنِيـهِ، فَـأَدْرَكَ وَهُـوَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُـطَّلِبِ، فَأُتِيَ عَبْدُ الْمُـطَّلِبِ فِي الْمَـنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: احْفِرْ زَمْـزَمَ خِبْأَةَ الشَّـيْخِ الْأَعْظَمِ،...

فقد جعل يوم الفيل :

أول مـا ذكـر مـن عبد المطّلـب... أنَّ قريشـاً خرجـت فارّةً مـن أصحاب الفيـل، وهو غـلام شـابٌّ. أي أنَّ يـوم الفيـل أول أيامه. وبالتـالي فإنَّ حفـره لبئر زمزم وقـع بعد الفيل بدليـل قولـه :فَبَيْنَـمَا هُـوَ فِي ذَلِـكَ، وَقَـدْ وُلِدَ لَـهُ أَكْبَرُ بَنِيـهِ، فَـأَدْرَكَ وَهُـوَ الْحَارِثُ بْـنُ عَبْدِ

الْـمُطَّلِبِ... وهـو غـلامٌ شـابٌّ. إن كان الزهـري يريـد بقولـه هـذا أنَّ عبـد المطّلب كان غلامـاً شـاباً بمعنـى أنّـه لم يتجاوز العشريـن عاماً، وهـذا قد يصـحُّ إن أخذنا بالقـول: إنَّ أمـر الفيـل كان قبـل مولـد رسـول الله ﷺ بأربعين سـنة. وإلّا فكيـف يكون هـذا إذا قلنا: إنَّ وقعـة الفيـل أي وقـت حملة أبرهة، كانـت قبل البعثة النبويـة بأربعين عامـاً، أي في عام ولادة النبـيّ ﷺ وكان لعبـد المطّلب من الأبناء عشرة أقلّهم سـنًّا هو عبـد الله أبو النبيّ ﷺ، وكان عمـره يـوم ولد رسـول الله ﷺ ثمانية وعشـرين عامـاً تقريباً، فقد أرخـوا أنَّ عبد الله بـن عبـد المطّلـب ولـد بمكة المكرمـة قبـل الفيـل بثمانية وعشـرين عامـاً، فإن صـحَّ هذا فـإنَّ ولادتـه كانت ٨١ وفي قـول: ٧٩، ٧٨ قبل الهجـرة النبويّة،.. ولكن لعـلَّ الزهري لا يقصـد المرحلـة العمرية المعينـة والمعروفة، بـل لعلَّه كان يقصـد بوصفه هـذا لعبد المطّلب هـو كـما يقـال: ـ والـكلام لابن الأعـرابي ـ فـلان غُـلام النـاس وإن كان كهـلاً، كقولك فـلان فتـى العسـكر وإن كان شـيخاً. وربَّـما أطلقه على عبـد المطّلب مجـازاً؛ ويطلق الغلام عـلى الرجـل مجـازاً باسـم مـا كان عليـه، كـما يقـال للصغير: شـيخ مجـازاً باسـم مـا يئول إليـه. ثُـمَّ كيـف فَبَيْنَـمَا هُوَ فِي ذَلِـكَ، وَقَـدْ وُلِدَ لَهُ أَكْـبَرُ بَنِيهِ، فَـأَدْرَكَ وَهُـوَ الْحَارِثُ بْـنُ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ؟ !فهـل يقصـد في كلمته (فبينما هو في ذلـك)، أي فَلَمْ يَـزَلْ ثَابِتًـا فِي الْحَرَمِ حَتَّى أَهْلَـكَ الله الْفِيـلَ وَأَصْحَابَـهُ، فَرَجَعَتْ قُرَيْـشٌ وَقَدْ عَظُمَ فِيهَـا لِصَبْرِهِ، وَتَعْظِيمِـهِ مَحَارِمَ الله عَزَّوَجَـلَّ. فـإن كان كذلـك، فهو يعنـي أنَّ الحارث ولـد في حادثة الفيـل أو أدرك بُعيدها، فشـارك أبـاه كولـد وحيـد لـه في حفـر زمـزم، وهـذا لا يتـمُّ إلّا إذا كان الزهـري يـرى أنَّ وقعـة الفيـل لم تكن في عـام ولادة رسـول الله ﷺ بل قبلـه؛ كأن تكون قبله بأربعـين عاماً. وإلّا فـأولاد عبـد المطّلـب بلغ عددهم عشرة أقلهم سـنًّا عبـد الله أبو النبـيّ ﷺ إن قلنا: إنَّ ولادتـه ﷺ المباركـة في عـام الفيـل.. هـذه ملاحظة أو إشـارة مختصـرة لما نُسـب للزهري قـد تنفع.

فـما مـن مصـدر تأريخـي ولا تفسـيري ولا حديثـي ـ فيـما تيسّـر لي ـ يتحـدث عـن

الـولادة المباركة لسـيد الأنبياء والرسـل محمد بن عبـد اللهﷺ إلّا وقد أرَّخ ـ على المشـهور ـ مولـدهﷺ المبـارك في عامه الـذي عرف بعـام الفيل، وصرح بأنـه ولد في عام الفيـل، وأنّه وقـع قبـل البعثـة النبوية الشريفـة بأربعين عامـاً.. ويوم الفيـل أو عام الفيل هو ما سـمّته المصـادر التاريخيـة وكـذا التفسـيرية، وصـار موضـع اهتـمام التاريـخ، فسـجلته مصـادره وأخبـاره؛ وأشـارت لـه أقوال مشـهور المؤرخين واعتنت بـه أيما عناية، حتـى راح العرب يحـددون أيامهـم ووقائعهـم انطلاقـاً من هذا العـام، فتلك وقعـت قبل عام الفيـل، وهذه وقعـت بعـد عـام الفيـل، ولد فـلان أو تـزوّج أو مـات أو قتـل في عـام الفيـل؛ أو قبله أو بعـده، أو بكـذا يـوم أو سـنة...، حتـى جعلـوا يـوم الفيـل أو عامـه، وكأنّه تقويـمٌ لهم في أحداثهـم وغزواتهـم ومـا وقع عندهم مـن أمور، وهكذا هـم يؤرخون بأيامهـم الأُخر لا فقط بيـوم أو عـام الفيل..

الأزرقـي:... الْعَـرَبُ تُـؤَرِّخُ بِـهِ، فَكَانُـوا يُؤَرِّخُـونَ فِي كُتُبِهِـمْ وَدُيُونِهِـمْ مِـنْ سَـنَةِ الْفِيلِ،وَفِيهَـا وُلِـدَ رَسُـولُ اللهﷺ،...

يقول جواد علي في المفصل:

صـار العـرب يؤرخون بعـام الفيل، فلـم تزل قريش والعـرب بمكة جميعاً تـؤرخ بعام الفيـل، ثـمَّ أرخت بعام الفجـار، ثمَّ أرخت ببنيـان الكعبة...[1]

لقـد سُـجل لعبـد المطّلـب دورٌ بـارزٌ فيـه، حتى عُـدَّ هـذا اليوم واحـداً من أيامـه، إن لم نقـل مـن أخطـر أيامه وأشـدّها عليـه وأحرجها مـن جهة، ومـن جهة أُخـرى كان خير مصـداق لقـوّة توحيـده لله تعـالى وعظيـم ثقتـه بـه عزَّوجـلَّ. فعبـد المطَّلـب كبـير قريش

١. انظـر تفسـير البحر المحيـط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ) ؛ تفسـير مجمع البيان للشـيخ الطبرسي، (ت٥٤٨ هــ) ؛الجامـع لأحكام القرآن، القرطبـي (ت٦٧١هـ)، سـورة الفيل ؛ أعلام النبوّة للـماوردي ؛ كتاب الـكافي للشـيخ الكلينـي(ت ٣٢٩ هــ) ١ : ٤٣٩ أبواب التاريـخ : باب مولد النبـيّﷺ ؛كتاب أخبار مكـة للأزرقـي (ت٢٥٠هـ) : ١٥٤ ؛ المفصل لجـواد علي ٢ : الفصـل: ٤١. حادثة الفيل..

وسيد البطحاء، ومن ذلك الموقع التوحيدي الإبراهيمي الحنيفي المتمسك به، وقد ناهز السبعين من العمر أو جاوزها، كان في ذلك اليوم؛ بل وفي جميع أيامه ومواقفه، قوي الجنان، رابط الجأش، لايضطرب ولايضعف عند المفاجأة! وبالذات إزاء محاولة أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق! ولا غرابة ولا ريب في هذا وهو الذي قد أعطاه الله: في زمانه وأجرى على يدَيه، وأظهر من كرامته ما لا يُعرف مثله إلّا لِنبيٍّ مُرسَل، وإنَّ في كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعُّده إياه بربّ الكعبة، وتحقيق قوله من الله تعالى ونصْرة وعيده بحبس الفيل، وقَتْل أصحابه بالطير الأبابيل وحجارة السِّجِّيل حتى تُركوا كالعَصْف المأكول، لأعجب البرهانات وأسنى الكرامات، وإنما كان ذلك إرهاصًا لنبوّة النبيّ ﷺ وتأسيسًا لما يريد الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدِّمًا له ومردودًا عليه، وليكون أشهَر في الآفاق وأجلَّ في صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة، وأجدَر أن يَقهَر المُعانِد، ويَكشف غباوة الجاهل...[1]

ولا ننس ما ذكره الشهرستاني أعلاه، وملخصه: ببركة ذلك النور الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعيل عليهما السلام، وتواصله في ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور في أسارير عبدالمطّلب؛.. دفع الله تعالى شرَّ أبرهة، وأرسل عليهم طيراً أبابيل.

من ذاك وهذا انبثق موقفه من الحملة العسكرية الكبرى، المعتدية الظالمة، التي خطط لها وقادها أبرهة الحبشي، حتى عدَّ موقف عبد المطلب تجسيداً فريداً لتعلقه بالله تعالى، ولعِظم تسليمه له، وتجلّت فيه حكمته وكياسته وفهمه الواعي للمرحلة، التي مرَّ بها، ومرّت بها الجزيرة العربية، وبالخصوص مكة وأهلها والكعبة المشرّفة، فكان من أهم أيامه وأخطرها وأقساها على قلبه... وقد تجاوز فعله هذا وموقفه مدارك الكثيرين، ولم يفهمه إلّا من باشر التوحيد قلبه، وأيقن بقدرة الله تعالى!

ولقد أثارت كلمته الآتية استغراب أبرهة ودهشته، وأظهر زهده فيه، وذلك

١. انظر كتاب الرسائل، للجاحظ: ١١٢.

حـين راح يواصـل حملتـه وبرفقته الرهبـة والطغيـان، وآلاف مـن جنود مجنـدة، يتقدمهم الفيـل كرمـز ـ كما يبدو اعتـادوا على اصطحابـه معهـم في غزواتهم ـ نحو الكعبـة المباركة، وحسـب بعـض الأخبـار، ذكـروا للفيل اسـماً وهـو (الحـاج محمـود)، بعث بـه النجاشي لأبرهـة كـي يتقـدم حملتـه، أو أنَّ أبرهـة، وكان نصرانيًّا، وهو من الحبشـة، اسـتقدمه منها إلى اليمـن، و إلى أي مـكان آخـر، وبالذات في اسـتخدامه في الحملة على مكـة، وكان موفّراً لـه مـا يحتاجـه من بيئـة تناسـبه؛ ومن مـاء كثـير يرافقه وعشـب و طعـام، وهو أمـر ميسّر لـه، وقـادر عليـه، فهـو حاكم وسـلطان، وبالتـالي لا غرابـة في أن يسـوق الفيـل في مقدمة حملتـه، رمـزاً لجنـده؛ وترويعاً لأهـل مكة وتخويفـاً لهم، وقد يسـتعين به في تهديـم الكعبة؛ وتخريبهـا، ولا أظنّـه يحتـاج إلى أكثـر من فيل مع وجود عـدد كثير من جنـده وآلياتهم، فهو قـادم لتخريـب هذه البنيـة المؤلفة من أربعـة جدران وسـقف لا غير، ويكفيهـا فيل واحد يمـرُّ بجوانبهـا، حتـى أنه لم يـأت لتهديم وتكسـير ثلاثمائة صنـم أو أكثر، أصنـام وضعتها يـدُ الـشرك والبغـي يُحيطون بهـا الكعبة، فيحتـاج إلى جهد ووقـت وأيدٍ كثـيرة، وعدد من الأفيلـة.. وعـلى ذكـر الأصنـام زعـم بعـض أنَّ قصـده مـن حملته هـو تهديـم الأصنام في محيـط الكعبـة وإنهـاء الـشرك، فأي أصنـام كان يهـدف لتخريبهـا، وأي شرك كان يسـعى لتقويضـه انتصـاراً لتوحيـد الله سـبحانه وتعالى، وهـو من أهـل الثالوث؟! وهـو وبدليل كلماتـه، جـاء للكعبـة، لا للأصنـام ليهدمها ويقتلع الشـرك مـن مكة، فهـو لم يكن بصدد أن يحطـم صنـماً ولم يـصرح بذلك، أو يُنهـي شركاً، وبين أيدينا كلُّ شـعاراته وقد خلت إلّا مـن التهديـد والوعيـد بهدم الكعبـة رمز التوحيـد والطهارة والحـجّ الذي يهـدف لإنهائه، وحتـى لـو أنَّ تهديـم الكعبة يقـترن به تهديـم الأصنام، ـ فوضـع الأصنـام في الكعبة، وإن يحمـل تجـاوزاً بلا شـك عـلى طهارتهـا ـ لكـنَّ أهـل الأصنام هـؤلاء كانـوا يُدافعـون عن الكعبـة رمـز وجودهـم ومصالحهـم، ويحرصـون عليها وعـلى مَن جـاء؛ ليؤدّي مناسـك الحـجّ والعمـرة، ويحمونـه ويخدمونـه أي خدمـة! وقد ظهـرت الأصنـام بعـد أن لم تكن، بعـد رفـع قواعد الكعبـة من قبـل نبيّين مباركـين إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام بقـرون، ويقال:

إنَّ عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، كان سيد مكة في زمن حكم خزاعة لمكة، يعدُّ أول من غيَّر دين إبراهيم الحنيف، والذي كان يقوم على توحيد الله، حيث إنَّه أدخل الأصنام؛ لتعبد من دون الله بالجزيرة العربية، فهو (أبو الأصنام)، هكذا كانت كنيته، التي عرف بها بينهم. وبالتالي لا علاقة لها بوجود الكعبة ونشأتها، نعم وضعوها حولها وبجوارها كما هم وضعوها في بيوتهم وساحاتهم وأسواقهم، واصطحبوها في غزواتهم وأسفارهم، وتبقى فكرة تقربهم وتمسحهم وتوسلهم بها؛ لتقربهم إلى الله زلفى، سواءً هدمت الكعبة أو لا، هدمت الأصنام دليل شركهم أو لا، فالشرك عقيدة قد يُعبّرون عنها بوسائل أُخر، قد لا ينتهي اعتقادهم إلّا بإيجاد بديل، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ بدعوته إلى توحيد الله تعالى وإرادته بالعبادة دون غيره...

وقد تنبّه الرازي لهذا، في السؤال السابع: أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر، ولا شك أنَّ ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة، فَلِمَ سلط الله العذاب على مَن قصد التخريب، ولم يسلط العذاب على مَن ملأها من الأوثان؟ والجواب: لأنَّ وضع الأوثان فيها تعدّ على حقّ الله تعالى، وتخريبها تعدّ على حق الخلق، ونظيره قاطع الطريق، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة، وإن كانوا كفاراً؛ لأنَّه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق..[1]

هذا وإنَّ الكعبة بمسجدها ومعالمه ومناسكه تُعدُّ هي الأعظم من إرث إبراهيم عليه السلام بعد التوحيد، والمفروض أنَّ أبرهة وقومه النصارى يؤمنون بها، لا أن يقصد التخلّص منها بمحو وجودها ودورها، يستبدلها بكنيسة وصفت بأنَّها لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض! وكأنَّه شيَّدها بغضاً للكعبة وحجيجها. وليبني من خلالها كيانه ويُعزّزه ويُوسّعه، ويُرضي عنه النجاشي. وهو ما يهدف إليه، وقد حدثتنا عنه الأخبار، فالكلام

١. تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية.

كلّ الكلام الذي جاءت به الرواية التاريخية يدور حول الكعبة لا غير... الإطاحة بالكعبة نفسها لا بما حولها من أصنام وأوثان، يُعدُّ هدف حملته، ترويجاً لكنيسته القُليس، التي شيّدها في صنعاء كنيسة استذل أهل اليمن في بنائها ـ كما يقول السهيلي ـ حتى كان مَن يتأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعةً عظيمةً، وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيماً جدًّا، واتساعها باهراً. لم يُر مثلها ـ وهو قول ابن إسحاق أعلاه ـ في زمانها بشيء من الأرض. وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيتُ لك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجّ العرب.

حجّ العرب، وهم الذين يتوافدون على الكعبة في مكة المكرمة، وهو الذي لطاما لا فقط صرّح بمبتغاه هذا، بل سعى في أن يُنفّذه ويُنهي الكعبة، ويجعل القُليس قبلةً ومزاراً لجلب آلاف الزائرين لها، وأراد لها أن لا يزاحمها موقع آخر في الجزيرة العربية، وقطعاً لا يزاحمها إلّا الكعبة وروادها من حجيج ومعتمرين، بأن يصرف إليها جموعهم، وبالتالي تكون كنيسته بديلاً عن الكعبة، أو كعبته التي بناها باليمن، وجعل فيها قباباً من ذهب، وأمر أهل مملكته بالحجّ إليها يضاهي بذلك البيت الحرام، وما أن أهينت من قبل بعضٍ حين خرج من بني كنانة رجل وتغوّط فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح فأحرقتها، فحلف ليهدمنَّ الكعبة! فعزَّ على العرب ما خطط وحشّد له، وهم الذين اعتزوا بالإرث، الذي تركه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام؛ الكعبة وما يتبعها من معالم مقام إبراهيم والحجر الأسود وحجر إسماعيل وزمزم والصفا والمروة.. وقد شكّلت عمقهم التاريخي والعقدي الحنيفي، فوقف ضدَّه ذو نفر وهو من أشراف أهل اليمن وملوكهم ومعه قومه ومن تبعهم من العرب، إلّا أنَّ أبرهة استطاع هزيمتهم، وأخذه أسيراً. واعترضه نفيل بن حبيب الخثعمي ومَن هم تحت إمرته؛ قبيلتان وعرب كثير، فهزمهم أبرهة وأسر نفيلاً.. حتى

إذا مـرَّ بالطائـف خرج إليه مسـعود بـن مُعَتِّب في رجال مـن ثقيف، فقالوا لـه: أيها الملك، إنـما نحـن عبيـدك سـامعون لـك مطيعـون، ليـس عندنـا لك خـلاف، وليـس بيتنـا هذا البيـت الـذي تريـد ـ يعنـون الـلات ـ إنـما تريـد البيـت الـذي بمكـة، نحن نبعـث معك مـن يَدُلُّـك عليـه فتجاوز عنهـم. وبعثـوا معه أبـا رِغال، حتـى أنزلـه المغمِّس، فلـما أنزله بـه مـات أبورِغال هنـاك، فَرجَمت قـبره العرب، فهـو القبر الـذي يرجُم النـاسُ بالمغمس، وفيه يقول الشـاعر:

وأرجُـمُ قَـبرَه في كل عـامٍ كرجْـم النـاس قـبر أبي رِغالِ

ثـمَّ راح هـو أو مَـن أرسـله من قواده يسـوق أمـوال تهامة مـن قريش وكنانـة وهذيل. واسـتاق معهـا إبـلاً لأهـل مكـة، ومـن بينهـا إبـل عبـد المطّلـب... وقـد تسـامع العرب وأهـل مكة خاصـة بهذا كلّـه وبقصـده، وانتصاراته على مَـن أراد صدَّه ومنعـه عن مهمته في التوجّـه نحـو الكعبـة لتخريبهـا؛ وهنـا عرفـوا ولعلّهـم أيقنـوا أن لا طاقـة لهـم بقتاله، وراحـوا ينظـرون إلى مـا يـراه ويفعله سـيدُهم عبـد المطَّلب..[1]

رسول أبرهة:

وبعـث أبرهـة حناطـة الحمـيري إلى مكـة، وقـال لـه: سـل عن سـيد أهـل هـذا البلد وشريفهـا، ثـم قل له: إنَّ الملـك يقول لـك: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهـدم هذا البيت، فـإن لم تعرضـوا دونه بحـرب، فلا حاجـة لي بدمائكم، فإن هـو لم يرد حربي فأتنـي به. فلما دخـل حناطة مكـة، سـأل عن سـيد قريـش وشريفهـا، فقيل لـه: عبـد المطّلب بن هاشـم بـن عبـد منـاف بـن قصي، فجـاءه فقال لـه ما أمره بـه أبرهـة، فقال لـه عبد المطّلـب: والله مـا نريـد حربه، ومـا لنا بذلك مـن طاقة، هذا بيـت الله الحـرام، وبيـت خليله إبراهيم عليه السلام،

١. تفسـير الجامـع لأحـكام القرآن، القرطبـي (ت٦٧١هـ)؛ المفصل لجـواد علي؛ الأخبـار الطوال، أحمد بـن داود الدينوري: ٦٣.

فـإن يمنعـه منـه، فهو بيته وحرمـه، وإن يخل بينـه وبينه، فوالله مـا عندنا دفع عنـه، فقال له حناطـة: فانطلـق معـي إليه، فإنَّه قـد أمـرني أن آتيه بك. فانطلـق معه عبد المطّلـب ـ ومعه بعـض بنيـه ـ حتى أتى العسـكر، فسـأل عن ذي نفـر، وكان لـه صديقاً، حتـى دخل عليه وهـو في محبسـه، فقـال لـه: يـا ذا نفر، هـل عندك مـن غناء فيـما نـزل بنا؟ فقال لـه ذو نفر: ومـا غنـاء رجل أسـير بيـدي ملك ينتظـر أن يقتله غـدواً أو عشـيًّا! ما عندي غناء في شـيئ ممـا نـزل بك، إلّا أنَّ أنيسـاً سـائس الفيـل صديق لي، وسأرسـل إليه فأوصيه بـك، وأعظم عليـه حقّك، وأسـأله أن يسـتأذن لـك على الملـك، فتكلمه بما بـدا لك، ويشـفع لك عنده بخـير إن قـدر على ذلك، فقال: حسـبي، فبعث ذو نفـر إلى أنيس، فقال لـه: إنَّ عبدالمطّلب سـيد قريـش، وصاحـب عير مكة، يطعم النـاس بالسـهل، والوحـوش في رؤوس الجبال، وقـد أصـاب له الملـك مئتي بعير، فاسـتأذن لـه عليـه، وانفعه عنـده بما اسـتطعت، فقال: أفعـل. فكلـم أنيـس أبرهة، فقال لـه: أيها الملك، هذا سـيد قريـش ببابك يسـتأذن عليك، وهـو صاحـب عير مكـة، وهو يطعم النـاس في السـهل، والوحـوش في رؤوس الجبـال، فـأذن لـه عليـك، فيكلمك في حاجته، وأحسـن إليـه. فأذن لـه أبرهة.

قـال ابـن إسـحاق : وكان عبـد المطّلـب أوسـم النـاس وأجملهـم وأعظمهم. فلـما رآه أبرهـة أجلَّـه وأعظمـه، وأكرمه عن أن يجلسـه تحته، وكره أن تراه الحبشـة يجلـس معه على سريـر ملكـه. فنـزل أبرهة عـن سريره، فجلـس على بسـاطه وأجلسـه معـه إلى جانبه. ثم قـال لترجمانـه: قـل له: ما حاجتـك؟ فقال: حاجتـي أن يرد عـليَّ الملك مائتـي بعير أصابها لي. فلـمّا قـال ذلـك، قـال أبرهـة لترجمانـه؛ قـل لـه: قد كنـت أعجبتني حـين رأيتـك، ثمّ قـد زهـدتُ فيـك حـين كلمتنـي !أتكلمنـي في مئتـي بعـير أصبتهـا لك، وتـترك بيتـاً هو دينـك ودينـ آبائك؛ قـد جئتُ لهدمـه لا تكلمني فيـه؟ وهنا ذكـرت أخبـار التاريخ وكذا الروايـات أجوبـةً عديـدةً لعبـد المطّلـب، تدلُّ عـلى أنَّه حكيـمٌ رصـينٌ في أقوالـه وأفعاله، لم يأبـه بـما قالـه أبرهة حسـب بعـض الروايـات من أنّـه قـال: جئـتُ إلى بيته الـذي يعبده لأهدمـه، و هو يسـألني إطلاق إبله! أما لو سـألني الإمسـاك عن هدمه لفعلـت. لا أدري

كيف له الإمساك عما أكّد عليه، وحشد له الآلاف، وسبق أن عرض عليه عبد المطّلب ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبأ جيشه وقدّم الفيل، حين بلغ المغمس على أشراف مكة؟! إنها مجرّد مزاعم، مجرّد مزحة، واجهها عبد المطلب بحكمته ووعيه، وبقلب مطمئن بقدرة الله تعالى، وبابتسامة الواثق بربّه سبحانه، الساخر من أبرهة وجنده وفيله، وعدم مبالاته بما يدّعي، فكانت كلماته ينطق بها لسان صدق:

إني أنا ربُّ الإبل. وإن للبيت ربًّا سيمنعه !

إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا يحميه ويمنعه !

أنا ربُّ هذه الإبل، أما البيت فله ربٌّ يحميه!

ويردُّ عليه أبرهة: ما كان ليمتنع مني. ويجيبه عبد المطَّلب بكلّ ثقة: أنت وذاك اردد إليّ إبلي... يا لها من كلمات عظيمة نافعة، تُدلهم على ما ينجيهم لو كانوا يفقهون! قالها بكلّ وثوق ويقين بقدرة عزيز مقتدر على من لم يُرد فقط تخريب أو تهديم الكعبة كبناء، وإنما كان يسعى بكلّ قوّةإلى إنهاء المشروع الربّاني، الذي شيده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، المتمثّل في هذه البقعة المباركة، واستبداله بآخر حيث يحكم ويتسلط، لقد أراد لا فقط بأن ينقضها حجراً حجراً، ويسلبُها حُلِيَّها، ويجردها من كسوتها، ويستخرج كنزها، ويكون ذلك نهاية الكعبة، ولا تعمر بعد ذلك أبداً، بل يجعلها ومشروعها التوحيدي الإبراهيمي أثراً بعد عين، فيُخرجها من وعي الناس وعقيدتهم وتاريخهم ووجدانهم، ومن كونها أرض بركة وسلام وأمان.. إضافةً إلى ما يترتب على ذلك من القضاء على زعامة مكة لقريش ومَن حولها من القبائل، ومن إطفاء لجميع ما أُنشئ من مشاريع في الجزيرة العربية، وأهمها مشروع إيلاف قريش، وما يتضمنه من ثمار اجتماعية وتاريخية وتجارية وأمنية.. كان لهاشم والد عبد المطّلب الدور الأساس في تأسيسه، أو في تطويره إن صحَّ أنَّ جدَّه قصي بن كلاب بثَّ بذرته الأولى، حتى أنَّ أهمية هذا المشروع، وقد غيَّر وجه تلك المرحلة من تاريخ الجزيرة العربية؛ لعلّ هذه الثمار والأهمية تظهر حينما

نلتفت إلى أنَّ هناك ترابطاً، تحدّث عنه المفسرون وأعلام الفقه والحديث، بين سورتي الفيل وإيلاف قريش، بأنَّ ما حلَّ بأصحاب الفيل لأجل إيلاف قريش: ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾. ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾. وقد تحدثنا عنه في الحلقة السابقة.

وفرق كبير بين من يأتيها بهذا القصد السيء الخطير، ويعمل له ويخطط ويحشد له الآلاف عدداً وعدَّةً؛ وبين ما يُصيبها من سيول وغرق واحتراق، وضعف في جدرانها وأركانها فتهدمها، ويُعاد بناؤها. فالبيت انهدم بعد إبراهيم عليه السلام فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم، ثم انهدم فبناه قصي بناءً لم يُبن مثله.. أو بين من يقصدها من بشر سيّئين؛ ما أجرأهم على الله عزَّوجلَّ! سجل لهم التاريخ اعتداءات وتجاوزات ليست قليلةً على حرمتها، وعلى روّادها من حجّاج ومعتمرين عبر العصور لا لتهديد أو تهديم الكعبة بذاتها، فتُلغى رمزيتها وما تمثله من أثر روحي كبير، ومشروع عبادي عظيم، يتمثّل بالحجّ الابراهيمي، الذي اختارته السماء للناس، وللعبّاد منهم، عبر أذانها المبارك في خطابها لإبراهيم عليه السلام: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾.[1]

بل لضرب مّن احتمى بالكعبة بالمنجنيق؛ عبد الله بن الزبير المتمركز في المسجد الحرام والمتحصّن به، حين سيّر يزيد جيشاً إلى مكة، فحاصروا ابن الزبير في المسجد، وقاتلوه ورموه بالمنجنيق، وعن هذه الحادثة يقول الذهبي:.. لما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات اشتدَّ عليه الناس، وخرج عليه غير واحد، ولم يبارك الله في عمره، وسار جيش الحرّة إلى مكة؛ لقتال ابن الزبير، فمات أمير الجيش بالطريق، فاستخلف عليهم أميراً، وأتوا مكة، فحاصروا ابن الزبير وقاتلوه، ورموه بالمنجنيق، ذلك في صفر سنة أربع وستين، واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذي فدى الله به إسماعيل وكان في السقف، وأهلك الله يزيد في

١. سورة الحج: ٢٧، ٢٩.

نصف شهر ربيع الأول من هذا العام، فجاء الخبر بوفاته والقتال مستمر،...

وهذا ابن كثير يتحدث عن الحَجّاج وما قام به في خلافة عبد الملك بن مروان، سنة ٧٣ هـ: لما استهلت هذه السنة استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، وقد نصب الحَجّاج المنجنيق على مكة؛ ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك، وكان مع الحَجّاج الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق، فقتلوا خلقاً كثيراً، وكان معه خمس مجانيق، فألحَّ عليها بالرمي من كلّ مكان، وحبس عنهم الميرة والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة...[1]

وإن كان فعلهم هذا، وهو فعل الأشرار المتسلطين، يُعدُّ تعدّياً على حدود الله تعالى، ولا يخلو من أعظم إساءة لقدسية الكعبة وأمنها، وأبشع إنتهاك لحرمتها، ولا ننسى ما قام به القرامطة سنة ٣١٧ هجرية وما أقبحه وأشنعه من جرمٍ؛ استحلالهم لحرمة الكعبة، واستباحتهم لحجيجها، واستيلائهم على الحجر الأسود مدّة اثنتين وعشرين سنة قبل أن يُعاد إلى مكانه في الكعبة..

ولكن يبدو أنَّ البون بين ما يريده أبرهة وما كان يصبو إليه من عمله وبين الحادثين المذكورين، وكذا الثالث يبقى شاسعاً وكبيراً. ولهذا ـ والله أعلم ـ نزل عليهم العذاب، فجعلهم كعصف مأكول كما يأتينا في بيان سورة الفيل.

إنَّ عبد المطَّلب ـ وقد وصلته أخبار الحملة ومَن تصدى لها؛ ذو نفر الحميري وهو من أشراف اليمن وملوكهم مع قومه ومن أجابه من العرب، وبعده نُفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شَهران وناهِس، ومن تبعه من قبائل العرب، ولم يُفلحا، وحجم الأموال التي قدمت له، كالتي هي من قبل يعمر بن نُفاثة بن كنانة، وهو يومئذٍ سيِّد بني كنانة، وخويلِد بن واثلة الهُذَليّ وهو يومئذٍ سيد هُذَيل، فقد عرضوا

١. تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي (٨٤٩ هـ، ٩١١ هـ): ١٥٩؛ البداية والنهاية لابن كثير ٨: ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين...

على أبرهة ثلث أموال تِهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت؛ لكي تثنيه عما عزم عليه، فأبي عليهم ولم يستجب ـ كان متيقناً من أنَّ أبرهة جاء عازماً ومصرّاً على ما يريد، وأنَّه لا يريد العودة من حيث أتى، حتى يُكمل هدفه وهو تخريب الكعبة وإنهاء وجودها، ولهذا لم يكلمه ولم يفتح ملف حملته على الكعبة، وكأنَّه ابتسم ابتسامة الواثق بالله تعالى وهو يسمع أو تناها إليه، أنَّ أبرهة قال: أما لو سألني الإمساك عن هدمه لفعلت. هذا الذي زعمتم أنه عظيم قريش وذكرتم عقله، يدع أن يسألني أن انصرف عن بيته الذي يعبده، أما لو سألني أن أنصرف عن هذا لانصرفت له عنه.

لقد حقن عبد المطَّلب دماء قومه بحكمته، حين أحال منع البيت وحمايته إلى ربِّه، وفي هذا تهديد عظيم وتحذير خطير لأبرهة لو كان يشعر، واكتفى باستغرابه ودهشته من طلب شيخ قريش، وأظهر زهده فيه، وعدم مبالاته بما قال، ولا غرابة في هذا، وقد تجاوز تفسير فعل عبد المطّلب وما قاله مدارك الكثيرين قديماً وحديثاً، ولم يفهمه إلّا من باشر التوحيد قلبه، وأيقن بقدرة الله تعالى!

لم يتزحزح أبرهة عما جاء من أجله، وبقي على موقفه، لكنه قبل أن يواصل حملته نحو الكعبة المباركة، وبرفقته آلاف من جنود مجندة؛ ستين ألفاً أو يزيدون، يتقدمهم فيلٌ، وصفوه بأنَّه كان «فيلاً لم يُرَ مثله في الأرض عظماً وجسماً وقوةً».. يزعمون أنَّ به تحسم المعركة لصالحهم، ويتمُّ به انتصارهم؛ لما يتركه وجود الفيل ومن خلفه العدد الهائل من الجنود من ترهيب ورعب لأعدائهم والمعارضين لحملتهم وأهدافها. ردَّ عليه إبله، ثم انصرف عبد المطّلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال. وبعد أن أمر قريشاً بالخروج من مكة إلى رؤوس الجبال والشعاب؛ للتحرز فيها تخوفاً عليهم من معرة الجيش، واطمأنَّ عليهم، قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة بابها، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده!

وظلَّ هكذا، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة، يُنشد أبياته وهم جميعاً يسمعون ويردّدون معه حتى غدت أبياتاً، وإن تعدّدت واختلفت مفرداتها قليلاً من مصدر لآخر، إلّا أنَّها صارت معروفةً خالدةً:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إنَّ عدو البيت مَن عاداكا ... امنعهم أن يُخربوا قراكا

ثم قال أيضاً:

لَاهُمَّ إنَّ العبد يمنع ... رحله فامنع حلالك

أو:

يَا رَبِّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ ... رَحْلَهُ فَامْنَعْ حلالك
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ ... وَقِبْلَتَنَا فَأْمُرْ مَا بَدَا لَكْ
وَلَئِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّهُ ... أَمْرٌ يُتِمُّ بِهِ فِعَالَكْ
جروا جموع بلادهم ... والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلاً وما رقبوا جلالك.

وقال أيضاً:

وكنت إذا أتى باغ بسلم ... نرجي أن تكون لنا كذلك
فولّوا لم ينالوا غير خزي ... وكان الحين يهلكهم هنالك
ولم أسمع بأرجس من رجال ... أرادوا العزَّ فانتهكوا حرامك.

ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلْقَةَ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى شَعَفِ الْجِبَالِ، فَتَحَرَّزُوا فِيهَا يَنْتَظِرُونَ مَا أَبْرَهَةُ فَاعِلٌ بِمَكَّةَ إِذَا دَخَلَهَا!

وَقَالَ عَبْدُ الْـمُطَّلِبِ أَيْضًا:

قُلْـتُ وَالْأَشْرَمُ تَـرْدِي خَيْلُـهُ ... إِنَّ ذَا الْأَشْرَمَ غَـرَّ بِالْحَـرَمْ

كَادَهُ تُبَّـعُ فِيـمَا جَنَّـدَتْ ... حِمْـيَرٌ وَالْحَـيُّ مِـنْ آلِ قِـدَمْ

فَانْثَنَى خَارِجًـا آهٍ وَفِي أَوْدَاجِهِ ... حَاجِـرٌ أَمْسَـكَ مِنْـهُ بِالْكَظَمْ

نَحْـنُ أَهْـلُ اللهِّ فِي بَلْدَتِـهِ ... لَمْ يَـزَلْ ذَاكَ عَهْـدَ إِبْرَاهِيـمْ

نَعْبُـدُ اللهَ وَفِينَـا شِـيمَةٌ ... صِلَـةُ الْقُرْبَـى وَإِيفَـاءُ الذِّمَـمْ

إِنَّ لِلْبَيْـتِ لَرَبًّـا مَانِعًـا ... مَـنْ يُـرِدْهُ بِأَثَـامٍ يُصْطَلَـمْ.

وبقي عبد المطّلب مرابطاً في البيت رافضاً الخروج منه حتى يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً، يرافقه يقين تام وإيمان مطلق بالله تعالى، وثقة عالية أنّه عزَّوجلَّ يحمي الكعبة من عدوّها القادم لانتهاك حرمتها وتخريبها وإماتت وظيفتها، ولا يخذله وهو يدعو ربَّه ويتضرّع إليه حتى استجاب له ربُّه، فوقع لأبرهة وجيشه ما غرّه عنه طغيانه وجبروته، وتجاهله عن معرفة جوهر ما يهدف إليه شيخ قريش وسيدها من كلمات سمعها أبرهة ومَن حوله، فأثارت استغرابه واستهجانه...![1]

و روائيًّا:

لا تختلف الروايات كثيراً عمّا تحدّث به أهل مكة قبل البعثة؛ بخصوص حملة أبرهة، وهي كثيرة في مصادر التاريخ والتفسير، جئنا ببعضها في هذه المقالة، ومنها: أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس قال: كان من حديث أصحاب الفيل أنَّ أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن... هلكوا جميعاً، فخرج عبد المطّلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم، وقال عبد المطّلب شعراً في المعنى:

١. السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨ هـ) ١ : ٥٠ ؛ تاريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ) ٢ : ١٣٤ .؛ الكامل في التأريخ، ابن الأثير (ت ٦٣٠ (١٤٠٤ :؛ وغيرها من مصادر التاريخ والتفسير.

أنت منعت الجيش والأفيالا وقد رعوا بمكة الأفيالا

وقد خشينا منهم القتالا وكلّ أمر منهم معضالا

شكراً وحمداً لك ذا الجلالا.

ومنها رواية وهب بن منبه أنَّه قال: أبرهة الاشرم: أول ملك من الحبشة افتتح اليمن وملكها ـ وهو الذي أراد هدم البيت ـ فسار إليه ومعه الفيل، فأهلك الله جيشه بطير أبابيل، ووقعت في جسده الآكلة، فحمل إلى اليمن فهلك بها. وفي ذلك العصر ولد النبيُّ صلى الله عليه وآله. وهناك غيرها، ولكنّا نكتفي هنا بنماذج مما روي عن أهل البيت عليهم السلام ... عن أبان بن تغلب، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لما أتى صاحب الحبشة بالخيل، ومعهم الفيل؛ ليهدم البيت، مروا بإبل لعبد المطّلب فساقوها، فبلغ ذلك عبد المطّلب، فأتى صاحب الحبشة، فدخل الآذن، فقال: هذا عبد المطّلب بن هاشم، قال: وما يشاء؟ قال الترجمان: جاء في إبل له ساقوها يسألك ردّها. فقال ملك الحبشة لأصحابه: هذا رئيس قوم وزعيمهم! جئتُ إلى بيته الذي يعبده لأهدمه، وهو يسألني إطلاق إبله! أما لو سألني الإمساك عن هدمه لفعلت، ردّوا عليه إبله. فقال عبد المطّلب لترجمانه: ما قال الملك؟ فأخبره، فقال عبد المطّلب: أنا ربُّ الإبل، ولهذا البيت ربٌّ يمنعه، فردّت عليه إبله. وانصرف عبد المطّلب نحو منزله، فمرَّ بالفيل في منصرفه، فقال للفيل: يا محمود، فحرّك الفيل رأسه. فقال له: أتدري لِمَ جاءوا بك؟ فقال الفيل برأسه: لا، فقال عبد المطّلب: جاءوا بك لتهدم بيت ربّك، أفتراك فاعل ذلك؟ فقال برأسه: لا! فانصرف عبد المطّلب إلى منزله، فلما أصبحوا غدوا به لدخول الحرم، فأبى وامتنع عليهم، فقال عبد المطّلب لبعض مواليه عند ذلك: اعل الجبل، فانظر ترى شيئا؟ فقال: أرى سواداً من قبل البحر. فقال له: يصيبه بصرك أجمع؟ فقال له: لا، وأوشك أن يصيب، فلما أن قرب قال: هو طير كثير ولا أعرفه، يحمل كلّ طير في منقاره حصاة مثل حصاة الحذف أو دون حصاة الحذف. فقال عبد المطّلب:

و ربّ عبد المطلب ما تريد إلّا القوم، حتى لما صارت فوق رؤوسهم أجمع ألقت الحصاة، فوقعت كلّ حصاة على هامة رجل، فخرجت من دبره فقتلته، فما انفلت منهم إلّا رجل واحد يخبر الناس، فلما أن أخبرهم ألقت عليه حصاة فقتلته. و عنه... عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: لما أقبل صاحب الحبشة بالفيل يريد هدم الكعبة، مروا بإبل لعبد المطّلب، فاستاقوها، فتوجّه عبد المطّلب إلى صاحبهم يسأله ردَّ إبله عليه، فاستأذن عليه فأذن له، و قيل له: إنَّ هذا شريف قريش ـ أو عظيم قريش ـ و هو رجل له عقل ومروءة، فأكرمه وأدناه، ثم قال لترجمانه: سله: ما حاجتك؟ فقال له: إنَّ أصحابك مروا بإبل [لي] فاستاقوها فأحببت أن تردّها عليَّ !

قال: فتعجب من سؤاله إياه ردّ الإبل. وقال: هذا الذي زعمتم أنه عظيم قريش وذكرتم عقله، يدع أن يسألني أن انصرف عن بيته الذي يعبده، أما لو سألني أن أنصرف عن هذا لانصرفت له عنه، فأخبره الترجمان بمقالة الملك، فقال له عبد المطّلب: إنَّ لذلك البيت ربًّا يمنعه، وإنما سألتك ردّ إبلي لحاجتي إليها، فأمر بردّها عليه. فمضى عبد المطّلب حتى لقي الفيل على طرف الحرم، فقال له: محمود...، وجاءوا بالفيل ليدخل الحرم، فلما انتهى إلى طرف الحرم امتنع من الدخول فضربوه فامتنع من الدخول، فأداروا به نواحي الحرم كلّها، كلّ ذلك يمتنع عليهم، فلم يدخل، فبعث الله عليهم الطير كالخطاطيف، في مناقيرها حجر كالعدسة أو نحوها، ثم تحاذي برأس الرجل ثم ترسلها على رأسه فتخرج من دبره، حتى لم يبق منهم إلّا رجل هرب فجعل يحدث الناس بما رأى إذ طلع عليه طائر منها فرفع رأسه، فقال: هذا الطير منها، وجاء الطير حتى حاذى برأسه، ثم ألقاها عليه فخرجت من دبره فمات... عن أبي عبد الله جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام، قال: «لما قصد أبرهة بن الصباح ملك الحبشة؛ ليهدم البيت، تسرعت الحبشة، فأغاروا عليها، فأخذوا سرحاً لعبد المطّلب بن هاشم، فجاء عبد المطّلب إلى الملك، فاستأذن عليه، فأذن

لـه وهـو في قبـة ديبـاج عـلى سرير لـه، فسـلم عليه، فـرد أبرهـة السـلام، وجعـل ينظر في وجهـه، فراقـه حسـنه و جمالـه وهيئتـه فقال لـه: هـل كان في آبائك مثـل هذا النـور الذي أراه لـك والجـمال؟ قـال: نعم أيهـا الملـك، كلّ آبائي كان لهم هـذا الجمال و النـور و البهاء. فقـال لـه أبرهـة: لقـد فقتم [الملـوك] فخـراً و شرفـاً، و يحـقّ لـك أن تكون سـيد قومك، ثـم أجلسـه معـه عـلى سريـره، و قـال لسـائس فيلـه الأعظـم ـ و كان فيـلاً أبيـض عظيم الخلـق، لـه نابـان مرصعان بأنـواع الـدرّ و الجواهـر، و كان الملك يباهي به ملـوك الأرض ـ ائتنـي بـه، فجـاء به سائسـه، و قـد زين بكلّ زينة حسـنة، فحـين قابل وجه عبـد المطلب سـجد لـه، و لم يكـن يسـجد لملكه، و أطلـق الله لسـانه بالعربية، فسـلّم على عبـد المطّلب، فلـما رأى الملـك ذلـك ارتـاع لـه و ظنـه سـحراً، فقـال: ردوا الفيـل إلى مكانـه. ثـم قـال لعبـد المطّلـب: فيـم جئت؟ فقـد بلغني سـخاؤك وكرمك وفضلـك، ورأيت مـن هيئتك وجمالك و جلالك ما يقتضي أن أنظر في حاجتك، فسـلني ما شـئت. و هو يرى أن يسـأله في الرجـوع عـن مكـة، فقـال لـه عبـد المطّلـب: إنَّ أصحابك غـدوا عـلى سرح لي فذهبوا بـه، فمرهـم بردّه عـليَّ. قال: فتغيـظ الحبشي مـن ذلك، وقـال لعبد المطلب: لقد سـقطت مـن عينـي، جئتنـي تسـألني في سرحـك، و أنا قـد جئتُ لهـدم شرفـك وشرف قومك، و مكرمتكـم التـي تتميـزون بها مـن كلّ جيل، وهـو البيت الذي يحـجّ إليه مـن كلّ صقع في الأرض، فتركـت مسـألتي في ذلـك وسـألتني في سرحـك !فقـال لـه عبد المطلب: لسـتُ بـربّ البيـت الـذي قصـدت لهدمـه، وأنـا ربّ سرحـي الـذي أخـذه أصحابـك، فجئتُ أسـألك فيـما أنـا ربُّـه، وللبيـت ربٌّ هـو أمنـع لـه مـن الخلـق كلهـم، و أولى [بـه] منهم! فقـال الملـك: ردّوا إليـه سرحـه، فـردّوه إليـه و انصـرف إلى مكـة، و أتبعه الملـك بالفيل الأعظـم مـع الجيش لهـدم البيـت، فكانـوا إذا حملوه على دخـول الحـرم أنـاخ، وإذا تركوه رجـع مهـرولاً. فقـال عبد المطّلـب لغلمانه: ادعـوا لي ابني، فجـيء بالعباس، فقـال: ليس هـذا أريـد، ادعـوا لي ابنـي، فجـيء بـأبي طالـب، فقـال: ليس هـذا أريـد، ادعـوا لي ابني، فجـيء بعبـد الله أبي النبـيّ ﷺ، فلـما أقبل إليـه، قال: اذهب يـا بني حتى تصعـد أبا قبيس،

ثـم اضرب ببـصرك ناحيـة البحـر، فانظـر أي شيء يجـيء مـن هنـاك، و خـبرني به. قـال: فصعـد عبـد الله أبـا قبيس، فـما لبث أن جـاء طـير أبابيل مثل السـيل و الليل، فسـقط على أبي قبيـس، ثـم صـار إلى البيـت، فطـاف [بـه] سـبعاً، ثم صـار إلى الصفـا والمـروة فطاف بهـما سـبعاً، فجـاء عبـد الله إلى أبيـه فأخبره الخـبر، فقـال: انظر يا بنـي ما يكون مـن أمرها بعـد فأخـبرني به، فنظرهـا فإذا هـي قد أخذت نحو عسـكر الحبشـة ، فأخبر عبـد المطّلب بذلـك، فخـرج عبـد المطّلـب وهـو يقول: يـا أهـل مكـة، اخرجـوا إلى العسـكر، فخذوا غنائمكـم! قـال: فأتـوا العسـكر، و هـم أمثال الخشـب النخـرة، و ليـس من الطـير إلّا ما معـه ثلاثـة أحجـار، في منقـاره و رجليـه، يقتل بـكلّ حصـاة منها واحـداً من القـوم، فلما أتـوا عـلى جميعهـم انصرف الطـير، و لم ير قبل ذلـك و لا بعـده، فلما هلك القـوم بأجمعهم جـاء عبـد المطّلـب إلى البيت فتعلـق بأسـتاره، وقال:

يا حابـس الفيل بذي المغمس حبسـته كأنـه مكوكـس

في مجلس تزهق فيه الأنفس.

فانصرف و هو يقول في فرار قريش وجزعهم من الحبشة:

طارت قريش إذ رأت خميسـا فظلـت فـردا لا أرى أنيسـا

و لا أحـسّ منهـم حسيسـا إلّا أخـا لي ماجـداً نفيسـا

مسوداً في أهله رئيسا.[1]

فبرك الفيل»!

دون مكـة لا يدخلهـا، وجهـدوا في حملـه عـلى اقتحامهـا فلم يفلحـوا. وذلـك أنَّه «لما أصبـح أبرهـة، تهيـأ لدخـول مكـة وهيـأ جيشـه»، فلـما وجهّـوا الفيـل نحـو مكـة، برك،

١. انظـر الـدرّ المنثور في التفسـير بالمأثور، السـيوطي (ت٩١١هـ) ؛ التيجان في ملـوك حمير، تحقيق: مركز الدراسـات والأبحـاث اليمنية، صنعاء: مركز الدراسـات والأبحاث اليمنية : ٣١٤ ؛ تفسـير البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسـيني البحراني (ت ١١٠٧هـ) ؛ وغيرها من المصادر.

وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين، وأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فنزعوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجّهوه الى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكة فبرك.. يوجّهونه نحو مكة لما كان قريباً منها فيبرك، ويوجّهونه نحو اليمن والشام فيسرع.. ويُقال كما في خبرٍ أنَّ أحدهم، أو نُفَيْل بن حبيب، قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل.

وعن أهل البيت عليهم السلام وعن غيرهم أنَّ الذي كلّم الفيل هو عبد المطّلب بعد عودته من لقائه بأبرهة: وثب إلى الفيل، فمسح عليه، وقال له: أبرك يا محمود، وارجع راشداً من حيث أتيت، فإنَّك في بيت الله الحرام! فبرك الفيل ولم يتحرك باتجاه الكعبة. وفي رواية عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام، ملخّصها..: أنَّ عبد المطّلب مرَّ بالفيل في منصرفه، فقال للفيل: يا محمود، فحرك الفيل رأسه. فقال له: أتدري لِمَ جاءوا بك؟ فقال الفيل برأسه: لا، فقال عبد المطّلب: جاءوا بك لتهدم بيت ربّك، أفتراك فاعل ذلك؟ فقال برأسه: لا،.. فلما أصبحوا غدوا به لدخول الحرم، فأبى وامتنع عليهم.

وفي قولٍ:.. حين جاءوا بالفيل؛ ليهدموا به الكعبة، فلما أدنوه من باب المسجد، قال له عبد المطّلب: أتدري أين يؤم بك؟ فقال برأسه: لا، قال: أتوا بك لتهدم كعبة الله، أتفعل ذلك؟ فقال برأسه: لا، فجهدت به الحبشة ليدخل المسجد فأبى، فحملوا عليه بالسيوف وقطعوه!

سيد قطب: وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا: خلأت القصواء (أي حرنت)! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»!

وفي الصحيحين أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوم فتح مكة: «إنَّ الله حبس عن مكة الفيل،

وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنَّه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»! فهي حادثة ثابتة أنَّه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل.[1]

لقد حبسُ الفيل عن مكة في يوم الفيل، وما وقع بأتباعه من عذاب في الدنيا تمهيداً لخزي الآخرة يُعدُّ حدثاً تأريخيًّا واقعاً وثابتاً في أخبار أهل مكة ومَن هم حولها، ومن بعدهم في كتب المؤرخين العرب والمسلمين، وقد كثرت وتظافرت، ولعلّ ما ورد فيها من أخبار وروايات فاقت كثيراً ما جاء عن وقائع أخرى، وقائع نتحدث عنها في تاريخنا، ونستشهد بها في كتاباتنا ومحاضراتنا وخطبنا، ويكفي هذا في ثبوتها حتى وإن لم يذكرها غيرهم، فالآخرون لم يدوّنوا كثيراً من وقائع هذه البلاد وأيامها ومنها الغزوات والمعارك، تلك التي دامت سنين طويلة بين قبائلها وما تركته من قتل ودمار..، وهو ما تعارفت عليه الأُمم أنَّها في الأعم الأغلب لا تهتم إلّا بما يقع لها وعليها وفي ساحتها، أو لا تعتني بما يحدث لغيرها كعنايتها بما يحدث لها، فضلاً عن صعوبة أو انقطاع التواصل بينها؛ لعدم توفّر وسائل الاتصال وملاحقة الوقائع والحوادث هنا وهناك والبحث عن أخبارها، إلى غيرذلك من الأسباب.

وقد يكون عدم تدوينهم لها وهم الروم إن كانوا فعلاً هم المحرّضون، ومَن دفع إليها وشجّع أبرهة، يعود لعدم رغبتهم في ذكرها في تاريخهم ومخطوطاتهم وجدارياتهم وآثارهم؛ لأنَها هزيمة منكرة حلّت بهم، ولوكانت نصراً لهم لدوّنوها وتفاخروا بها وعلوا شأنها وشأنهم بها، لكنها فشل وهزيمة لحقتهم، تركوها دون ذكر، وتستّروا عليها؛ فلعلّها تُنسى، فلا تذكرها الأجيال القادمة.

هذا إذا فرضنا صدق البحث ونزاهته، وأنَّ الباحثين من علماء الآثار في تلك الآثار

---

١. تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١ هـ)؛ تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ تفسير البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧ هـ)؛ في ظلال القرآن لسيد قطب: سورة الفيل.

قـد اسـتوفوها جميعـاً، وهـو أمـر لم يقله أحـدٌ منهم، فقـد يكتشـفون غيرها مسـتقبلاً، مع تطـور آلاتهـم. فهكذا بحوث مـن شـأنها أن تتكامل يوماً بعـد آخر، ولا تقـف في نتائجها عند حـدٍّ وكفى.

فيـما اكتفى تاريخ العرب والمسـلمين بـما ذكرها تاريخ أهل مكة وأخبارهم؛ لسـعادتهم بالنـصر الـذي تحقق عـلى المعتديـن، ولرغبتهم في نشرها حتـى غدت من مفاخـر تأريخهم ووجودهـم، وهـذا قد يكـون مصداقاً لما يقـال: إنَّ التاريخ يكتبه المنتصـر، فيما أولئك هم مصداق للمهزوم، فـلا يكتب هزيمته..

إلى الحلقة الثالثة

* * *